الدكتور محي الدين رمضان
جامعة اليرموك - الاردن

وجوه من

الإعجاز الموسيقي في القرآن



دار الفرقان

وجوه من
الإعجاز الموسيقي
في القرآن

الطبعة الأولى

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د/ مصطفى الصاوى الجوينى

الاسكندرية

وجوه من
الإعجاز الموسيقي في القرآن

الدكتور محي الدين رمضان
جامعة اليرموك - الأردن

دار الفرقان للنشر والتوزيع
عمان - الاردن - جبل الحسين
ص ب ٩٢١٥٢٦ هاتف ٦٦٠٩٣٧


بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة بين يدي البحث

إذا كانت جهود الباحثين والعلماء قد أتت على ما أتت عليه منذ عشرات القرون، لتكشف عن وجوه الإعجاز في النص القرآني الكريم، فقد تباينت الآراء في أسبابه، واختلفت في وجوهه، ولكنهم لم ينتهوا إلى غاية، وبقي لكل مَن تصدّى زادٌ لا يلبث أن يُصيب منه، ويحسب أنه أتى بما لم يسبقه اليه أحد، ثم ينظر بين يديه، فإذا الذي تركه كأنه لم يقربْه، ولا نظر فيه. وإذا لسانُ حاله يقول مع القائل: [1]« إن سر الإعجاز مضمر في كلمات القرآن.... كلمة كلمة وآية آية. إنه أمر من أمر الله.... كالروح تُرى آثارها، وتُشاهد أفعالها، دون أن ينكشف للناس شيء منها. ويسألونك عن الروح قل الروح مِن أمر ربّي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً »

وهذا الجانب الذي تناولته في هذا البحث، لا يعدو أن يكون محاولة كغيرها في الدرس القرآني ولا سيما البياني منه، بيد أنني قرنت فيها بين جانبين: أحدهما هذه العناصر المتعاهدَة من القراءات وأخبارها واللغة التي أُنزل بها القرآن وخصائصها وأصول القراءة ورسم المصحف. وثانيهما مذاقي ومذاق غيري من الدارسين الذين يُشجيهم ترتيل النص الكريم، ويجدون فيه غاية التناسب بما احتواه من مضمون وائتلف عليه لفظه وصيغه، حتى كان قولي لمن أردت أن أرشده إلى قيم النص القرآني الموسيقية وآثارها من الاعجاز[2]:

---

١ - انظر الإعجاز في دراسات .. ١٧٧

٢ - انظر الإعجاز في دراسات .. ٣٩٦

«إن لم تكن من أصحاب الموسيقى فرتِّل الآية الكريمة ترتيلا قرآنيا.... مرة ومرة ومرات... واملأ فمك بكلماتها، وافتح أُذنيك لرنينها... وسترى أنك تنطق بلحن موسيقي يفيض رحمة، وينبض جلالا وقوة... يهتف بالنفوس الشاردة أن ترجع إلى ربّها، وبالقلوب الضالة أن تفِرّ الى خالقها».

غير أني قدّمت للبحث بما أظنه ملخصاً تاريخياً لأغلب ظواهر الإعجاز التي تناولها الباحثون والدارسون. وأضفت إليها ما حسبته جديداً بمضمونه وجديداً بتناوله.

وأرى أن حديث الإعجاز القرآني متجدد مع استمرار الأيام والحياة، ومقترن بقوة الإيمان بما تضمنه القرآن الكريم ودعوة صاحبه عليه الصلاة والسلام، وبحاجة النفس البشرية إلى مقومات الإيمان معنى وشكلا.

وللجانب الموسيقي حظ كبير من الاعجاز حاولت أن أستوفي بعضه وأتريث عند بعضه الآخر. وقد وقفت عنده في أخبار وافية، كشفت عن آثاره في إيمان مَن آمن واستجاب لصوت الداعي الى الاسلام، ولبى نداء النذير البشير.

وعسى أن أكون قد أصبتُ ضالّتي في هذا البحث أو بعضها، فإن كنت فذلك فضل من الله تعالى، وإلا فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي القدير.

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

المـؤلـف

في تاريخ الإعجاز

كان لكل نبي أرسله الله تعالى معجزته أو معجزاته عونا مِن ربه سبحانه، كي يبلّغ رسالته، ويجد إلى فطرة الناس، مِمّن يدعوهم سبيلا، ويُصيب عندهم استجابة وقبولا.

ومِن أبرز معجزات رسول الله محمد بن عبدالله نبي الإسلام، صلى الله عليه وسلم، كتاب الله عز وجل، القرآن الكريم الذي بين أيدي الناس، منذ انتقل الرسول الأمين عليه السلام إلى الرفيق الأعلى تعالى جده. بل لعل القرآن الكريم أبرز تلك المعجزات جميعاً.

ولم يشغل مشركي العرب إبّان الدعوة وبعد انتشارها شيء مما رأوه وسمعوه من معجزات النبي العربي كما شغلَهم القرآن وآيُهُ، مع أن لغيره من المعجزات، ما له من الآثار في وقته ومناسبته، كأثر القرآن الكريم. بيد أن طبيعة تلك المعجزات وقيمها ظلت مرهونة بوقتها، ولم تزل أن تدنّتْ منزلتها إزاء معجزة الكتاب العزيز.

وظل هؤلاء العرب بكل فئاتهم مذهولين عن أنفسهم متعجبين، لا تنقضي دهشتهم كلما سمعوا آيَهُ، وترددت في أسماعهم أصوات القارئين له.

وعكف العاكفون، وأفكر المفكرون، ومكر الماكرون ليدحضوا تلك المعجزة، فلم يحيروا شيئاً غير السخف الذي ارتد عليهم سُبّة، وذكرهم التاريخ به تندُّراً وتنقصاً كلما تردد الكلام على هذه الظاهرة[1].

وأثمرت محاولة المعاندين قيام عدة مؤلفين وباحثين، كان غرضهم أن

---

١ - انظر ما عزي من نصوص إلى مسيلمة الكذاب وسجاح وغيرهما في ثلاث رسائل في الإعجاز ٥٦، ٩٧ وإحياء علوم الدين ٣٥/١

يدحضوا مزاعم المبطلين بأنّ القرآن غير معجز، وأن يردوا تخرّصات المتخرصين على نص آيه، وأن يثبتوا وجوه الإعجاز التي تردعهم وتقنعهم، فاتصلت سلسلة التأليف والتصنيف في وجوه الاعجاز.

وإذا حاول باحث أو أكثر الوقوف على ما كُتب في الموضوع اجتمع لديه ثَبَتٌ بذلك كثيف، حتى كأن الكتابة في الإعجاز منعطف، لا بد لكل باحث في نص القرآن أو ما يقاربه أن يتريث عنده، ويكون له وجهة نظر في الظاهرة.

وهذا يثير سؤالا، هو: هل الباعث على البحث في هذه الظاهرة سبب تقليدي، مرجعه إلى صلتها بغيرها مِن الدرس القرآني العام، أو إلى دواع من النص نفسه، وتحريض لتناول الظاهرة وبحثها، وتجديد ذلك مِن وقت لآخر؟

والاجابة عن هذا السؤال القصير أن نعم. هناك سبب تقليدي، يجتذب الباحث في القرآن وآيِه من حيث أغلب وجوهه، ليقول في الموضوع قولا، أو يتريث طويلا، ليضيف إلى ثبت التأليف فيه ثمرة جديدة، أوْلها بعضُ الجدة. ولا ريب أن في النص نفسه بواعث تحمل الباحثين على أن يُعاودوا، ويجددوا الكلام بأسلوب آخر، وفهم جديد للموضوع. وهذا ما يثير سؤالا آخر: هل معنى هذا أن موضوع الإعجاز لم ينقضِ أمره، ولم يستنفِدْه البحث بعد، وإذا كان كذلك فهل على ذلك دليل؟

والإجابة عن هذا تقتضينا ذلك أن نحاول تلخيص مجمل ما عرض له الباحثون في الموضوع قبلاً، فهذا ييسر لنا أن ننتهي إلى غايتنا، مما نراه مِن وجوه الإعجاز التي ربما لم يعرض لها أحد، أو أن العرض لها كان مختصراً جدا وتضمّنه كلام الباحثين، فلم تظهر للقارىء، أو لم تكن له دواع تحرّض على البحث فيها.

وتتبُّعُ هذا الأمر يحتاج من الباحث إلى أن يطّلع على أغلب ما كُتب في الموضوع إن لم يكن كله، وهذا شيء ممتنع لأسباب كثيرة، منها أن الناس أكثروا[1] «الكلام في هذا الباب قديما وحديثا، وذهبوا فيه كل مذهب مِن القول، وما وجدناهم بعدُ صدروا عن رِيّ».

ومنها أن محاولة البحث في إعجاز القرآن العزيز[2] «مقام مهيب جليل كريم. تقوم دونه حُجب وأستار من الرهبة والروعة والجلال... فإذا لم يكن الساعي إلى هذا المقام الكريم المهيب على شيء غير قليل من الكياسة والتلطف والتأديب، لم ير إلا أبوابا مغلقة دونه، ولم يظفر بغير الرد والحرمان» ولهذا فقد كان هذا من سبب اجتذاب الباحثين وإصرار المحاولين[3]. «كان الكشف عن وجه الإعجاز، والتعرف على دلائله مطلبا عزيزاً أثيراً... انصرفت إليه همم الباحثين والدارسين من المسلمين وغير المسلمين، ليقعوا على السر الذي مِن أجله كان القرآن الكريم بهذه المكانة الغالية، التي لا ينالها أحد، ولا يطمح فيها بشر... مع أنه كلام من الكلام المألوف المعروف».

بيد أن هذه الكثرة من التأليف لا تحول دون تبيُّن الاتجاهات الكبرى في بحث الظاهرة.

فقد ذكر بعضهم أن[4] «وجوه الإعجاز تظهر من سبع جهات: تركُ المعارضة مع توافر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة والصَّرْفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونَقْض العادة، وقياسه بكل معجزة».

وإذا كان في هذه الوجوه أغلب عناوين البحوث والدراسات التي

---

١ - انظر ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ٢١ والإعجاز في دراسات ١٤٩

٢ - انظر الإعجاز في دراسات ١٨

٣ - انظر الإعجاز في دراسات ١٥١

٤ - انظر ثلاث رسائل ٧٥

أثارها الإعجاز. فلم يزل كل فريق عكف على أحد تلك العناوين، أن وجد منفذاً إلى جانب فيه ومدخلاً إلى جديد منه. ولكنهم لم ينتهوا لا هم ولا سواهم إلى غاية. فإن مَن قال منهم إن الإعجاز في البلاغة[١] صاروا إذا سُئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن، الفائقة في وصفها سائر البلاغات وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة قالوا إنه لا يمكننا تصويره بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام، وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضربا من المعرفة لا يمكن تحديده».

وهذا أشبه ما رواه أبو حيان عن بندار الفارسي إذ سُئل [٢] «عن موضع الإعجاز من القرآن فقال هذه مسألة فيها حَيفٌ على المعنى.... وذلك أنه شبيه بقولك: ما موضع الإنسان من الإنسان، فليس في الإنسان موضع من الإنسان بل متى أشرت إلى جملته فقدحققّته، ودللت على ذاته.

كذلك القرآن لِشرَفِه لا يُشار إلى شيء منه إلا وكان ذلك الشيء آية في نفسه، ومعجزة لمحاوله، وهدى لقائله».

وأبرز العناوين التي تناول الدارسون فيها هذه الظاهرة إنما كان النَظْم. وهو أوضح عنوان توالى عليه كبار الباحثين قديماً وحديثاً. وأول مَن قال به، ووقف عنده الجاحظ. وتابعه على ذلك طائفة: منهم الآمدي في موازنته، وأبو الحسن الجُرجاني في الوسَاطة، وأبو هلال العسكري في الصناعتين، وابنُ رشيق القَيْراوني في العُمدَة، وأبو بكر الباقلاني في حدود مفهوم لعنوان النظم هو: إذا كان على شيء من السعة والامتداد بحيث يحمل معنى مؤلّفاً من حقائق مترابطة يَسنُد بعضها بعضا فتتشكّل منها صورة سوية الخلق.

وتوالى الدارسون على هذا العنوان من وجوه مختلفة. فقد خصّه

١ - انظر ثلاث رسائل ٢٤

٢ - انظر الإعجاز في دراسات ٣٥٤

القاضي أبو الحسن عبدالجبار في كتابه المغني من حيث العناية بالمعنى وتفصيل النظْم كلمة مفردة ومركبة وإعراباً.

وخصه الراغب الأصفهاني، ومثلُه محمود بن عمر الزمخشري من حيث مواقع الألفاظ تركيباً، وما تؤديه من وجوه البيان وروائعه.

وتناوله المراكشي أحمد بن محمد أبو العباس من حيث محاميله وما ينطلِق منه من إشارات توحي بألوان من المعاني تعلن عن بعض وتخفي بعضاً.

وأما عبدالقاهر الجرجاني فقد فاق هؤلاء جميعا مَنْ تقدَّمه ومَنْ تأخر عنه ببحث هذا العنوان، فتناوله بمعناه الأوسع الذي يشمل التركيب واللفظ والحرف ممتزجاً بالمعنى المراد مِن الوجه الدقيق الذي تنطوي عليه النفس.

ومِن العناوين الأخرى الفصاحة، وغرابة الأسلوب والسلامة من جميع العيوب، وهو ما ذهب إليه وبحثَه محمد بن عمر الفخر الرازي.

وقريبٌ منه تساوقُ الفصاحة، واتصالُ البلاغة في القرآن مِن كل وجوهها، في جميع وجوهه دون انقطاع، وهو ما وقَف عليه وتناوله أبو الحسن القِرطاجني حازم بن محمد.

وجانبٌ آخر يتصل بروعة النص وجلاله يُهيمنان على الناس ويُذهلانهم عن نفوسهم، دون أن يمكن إدراكُها أو وصفُها، وهو ما تناوله أبو يعقوب السكّاكي يوسف بن أبي بكر. وتابعه على ذلك طائفة منهم فريد وجْدي. ولعل الرأي في هذا أن[1] «كل مَن يجيء الى القرآن... يجيء وهو عند نفسه قادر على أن يكشف هذا السر الذي اشتمل عليه القرآن، فأعجز الخلق أن يأتوا بمثله، ولكن ما إن يقف المرء تجاه القرآن

---

١ - انظر الإعجاز في دراسات ٣٤١

حتى تأخذه الروعة منه، وتستبد بمشاعره هذه القوى الروحية السارية فيه.. فإذا هو شاعر. يتملّى من هذا الجمال، ويُسبِّح بحمد هذا الجلال، إن لم تستقم بحور الشعر وقوافيه على لسانه فإنها قد تخلقت واستقامت في مشاعره ووجودانه».

وآخرُ هذه العناوين الصَرْفةُ[1] «أي صرفُ الهِمم عن المعارضة، وإن كان مقدورا عليها غير معجوز عنها، إلا أن العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجاري العادات صار كسائر المعجزات» ورأس مَنْ قال بذلك أبو إسحاق النظّام والمعتزلة والشريف المُرتضى.

وقولُ هؤلاء مردود بنص الآية، قال تعالى: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) «سورة الإسراء ٨٨» لأن المعنى يناقض قولهم بالصَرفة، كيف يطلب إليهم أن يأتوا بمثل القرآن وهو يصرفهم على نحو ما يقولون فلو[2] «كانت المعارضة ممكنة ومنع منها لم يكن معجزاً وإنما يكون بالمنع معجزا، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه».

وكلامي على هذا الجانب، والحديث عن الإعجاز وتناوله لم يستنفد بعد، شيءٌ أضيفه إلى وجوه الإعجاز القرآني، فضلاً عن أشياء سوف أتابع الكلام عليها، أضيفها إلى تلك الوجوه من الإعجاز.

فالله عزَّ وعلا إذ تحدّى أهلَ اللغة الذين أُنزِل الكتاب بها يومئذ، بنص آيه أن يأتوا بشيء مِثْله، ولو سورة، والسورة مِن القرآن تقع على السورة التي ذكرت فيها البقرة وسورة آل عمران وسورة النساء كما تقع على السورة الصغيرة كسورة الاخلاص أو المُعوِذّتين.

فالتحدي بالإتيان بسورة مِن مِثْل تلك السور التي عددُ آيها المئون

---

١ - انظر ثلاث رسائل ٢٢

٢ - انظر الإعجاز في دراسات ٣٧٧

والتي عددُ آيها دون أصابع اليد سِيّان. فهل كان ذلك التحدي لهؤلاء، أهل اللغة الأقحاح، وحدَهم، وفي زمانهم، وانتهى أمر هذا التحدي بعَجْزِهم، ودخوْل الناس في دين الله تعالى أفواجا، أو أن التحدي قائم، وهو موجّه إلى كل مَن ملك لغته أو ادّعى امتلاكها، وتصدّى للتحدي سواء كان عربيا أو أعجميا؟

والجواب أيسرُ شيء، وهو في نص الآية، كلٌ آية تواجه المعاجزين، ذلك لأن الكتاب العزيز ودعوتُه، والرسول الكريم عليه السلام، الذي بعثه الله تعالى به، وكلّفه بدعوته، إنما ذلك كله كان للناس كافة، وفي كل زمان ومكان. قال تعالى: (قُل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملكُ السماوات والأرض لا إله إلا هو يُحيي ويميت فآمنوا بالله ورسولِه النبيّ الأمي الذي يُؤمنَ باللّهِ وكلماتِه واتّبعوه لعلكم تهتدون) «الاعـــراف ١٥٨».

والناس الذين ذكروا في الآية هم الناس بعدَ بعثة رسول الله محمد بن عبدالله حتى آخر الزمان. وهذا أمر معلوم بالضرورة، ذلك لأن دعوة الإسلام خاتمة دعوات السماء، ورسولها خاتم الأنبياء، وكتابها ناسخٌ لِما سواه.

ومِن آيات التحدي قوله عز وجل: (وإن كُنْتم في رَيْب مّما نزلْنا على عبدِنا فأْتوا بسورة من مِثْله وادعوا شهداءَكم مِن دون الله إن كُنتم صادقين. فإن لم تَفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودُها الناس والحجارة أُعدّت للكافرين) «سورة البقرة ٢٣ - ٢٤».

ونص الآية يوضح أن التحدي مستمر، كان لهؤلاء، الذين خوطبوا بآي القرآن لأول الأمر، ولم يزل لمن جاء بعدهم حتى يوم الناس هذا وإلى آخر الزمان.

والكلام ههنا يتعلّق باستمرار الإعجاز، ودعوة الناس إليه كدعوة

مَن قبلهم دون فارق. ولا يتعلّق بماهية الاعجاز: هل هو في نص الكتاب العزيز ومضمونه أو في شيء خارج عنه ولا يتعلق بمقدور البشر المخاطَبين به؟ فلذلك موضع آخر سيأتي عند إجمال قول مَنْ قال في الإعجاز، وتحدث عنه.

واستمرار الإعجاز بنص الآي المبين، والدعوة إليه، تدعو مَن قبِل التحدي أن يتعرض لنص الكتاب الكريم كله مضمونا وشكلا.

والإعجاز في الوجهين جميعا ظاهر، وكان لِمَن تناوله وبحث فيه رأي فيها. وقد تعلّق أكثرهم بالشَكْل، وألحّ عليه، ولهج فيه. ولعلهم لم يجدوا في المضمون الإعجاز الذي وجدوه في الشَكْل، إلا فيما يتصل بالمغيّبات سواء ما تقدّم في الزمان من الأخبار وسِيَر الأُمم السالفة، وما انطوت عليه الإشارة، وأسعفَه الحال بقُرب الوقوع، أو أضمره الكلام حتى يأتي وقته، ويحين زمانه، إما في الدنيا والحياة العاجلة واما في الآخرة والحياة الآجله.

ومن وجوه الاعجاز في المضمون كلام القرآن الكريم على الدِّين من حيث هو حاجة أساسية في تكوين الإنسان. وقصةُ خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام في بَحْثه ومتابعته لمعبود مُهيمن عظيم دليل وحجة[1]. وقد أمسى مِن بعد ذلك إماماً وقدوة، قال تعالى: (ومَن يرغبُ عن مِلة إبراهيم إلاّ مَن سفِه نفسَه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لَمِن الصالحين.

إذ قال له ربه أسلِم قال أسلمتُ لرب العالمين. ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوبُ يا بَنيّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تَموتنّ إلا وأَنتم مسلمون) «سورة البقرة ١٣٠ - ١٣٢».

والناس اليوم، ومنْ قبل، كلُ الناس لهم دين، لا بدّ لهم من ذلك، سواء كان ديناً سماوياً أو ديناً يقوم مقامه، ويسدُّ مسدّه في هذا الجانب مِن

١ - انظر قوله تعالى في ذلك سورة الأنعام ٧٥ - ٧٩

الفطرة في جِبِلّتهم.

قال عز من قائل: (ولكلٍ وجهة هو مولّيها فاستبقوا الخيراتِ أينما تكونوا يأتِ بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير) «سورة البقرة ١٤٨».

والإنسان لم يزل يتطلع إلى حاله من هذا الوجود أينَ هو منه، يتحير من خلْقه ومظاهره، وكيف احتجب عن عينيه موجده ومُبدِعُه تعالى، يطلب الحجة عليه والدليل إليه.

وحرَص نصُّ الكتاب العزيز على أن يضرِب المثَل، ويأتي بالحجج إقناعا وإعجازا، قال سبحانه: (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربّه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يُحيي ويُميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس مِن المَشرق فأْتِ بها مِن المغرب فبُهت الذي كفَر واللهُ لا يَهدي القوم الظالمين. أو كالذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يُحيي هذه اللهُ بعدَ مَوتها فأماتَه اللهُ مائة عامٍ ثم بعثه قال كم لبثتَ قال لبثتُ يوماً أو بعضَ يوم قال بل لبثتَ مائة عام فانظُر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه وانظر إلى حِمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العِظام كيف نُنشِزها ثمّ نكسوها لحماً فلمّا تبيّن له قال أعلمُ أن الله على كل شيء قدير) «سورة البقرة ٢٥٨ - ٢٥٩»

والخبران في الآيتين يُمثّلان مستويين من التفكير عند الناس جميعا.

أولهما: مستوى المعاندين الذين يتحسّسون أثر قدرة الله تعالى فيما حولهم من مظاهر الخَلْق، ولكنهم يستكبرون في أنفسهم، وهؤلاء طائفة من الناس يكثُرون في الأغنياء الأثرياء وأصحاب السُلطان والجبروت. وثانيهما: مستوى مِن الناس كبير، ويمكن أن يُرى في سِنّ مِن الطفولة المتأملة التي تسأل وتسأل، ومِمّا تسأل عنه مُوجِد هذا الوجود، وتطلب التحقق منه، ومعرفته، بل رؤيتَه وهذه الفئة كثيرة، لأنها لم تزل سليمة الفطرة. فهي لا

تلبث أن تُذعن وتسلم أمرها في العبودية التي تجد معها الطمأنينة الخالصة.

ومن ذلك تخليصُ مفاهيم المؤمن مِن كل الأوهام المُخِلّة في تَصور الأحداث، وحقائق الحياة ووقائعها، قال عزّ مِن قائل: (وما محمدٌ إلاّ رسول قد خلَت مِن قبلِه الرُسُل أفإن مات أو قُتِل انقلبْتُم على أعقابِكم ومَن ينقلِب على عَقِبيه فلن يضُرّ اللهَ شيئاً وسيجزي اللهُ الشاكرين وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومَن يُرِد ثوابَ الدنيا نؤتِه منها ومَن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسَنجزي الشاكرين) «سورة آل عمران ١٤٤ - ١٤٥».

والموت ظاهرة قوية مثيرة للإنسان، وهي حد مفاجىء في حياة بني الإنسان بين الحقيقة والوهم، وباعثة على التأمّل والفكر، لا يُفلِت منها إلا المجنون. ولذا فقد أجاب عنها القرآن الكريم بشيء يستقر مع الإيمان في أصل الفطرة، ويتجدّد بحُسن الاعتقاد، قال سبحانه: (كلُّ نفس ذائقة الموت وإنما توفّون أجورَكم يوم القيامة فمَن زُحزِح عنِ النار وأُدخِل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاعُ الغُرور) «سورة آل عمران ١٨٥»

والإنسان متعلّق بموطنه أشدّ تعلّق، تهون عليه نفسُه ولا يهون عليه. وهذه مسَلّمة تعمُّ الناس في كل مكان وزمان وتتلبسهم، قال عزّ مِن قائل: (ولو أَنّا كتبْنا عليهم أنِ اقتُلوا أنفسَكم أو اخرُجوا مِن ديارِكم ما فعلوه إلا قليلٌ مِنهم ولو أنهم فعَلوا ما يُوعَظُون به لكان خيراً لهم وأَشَدَّ تثبيتاً) «سورة النساء ٦٦»

ولسلوك الانسان في نفسه أثر، يظَلّ يعاني منه ويلازمه حتى كأنما هو شبح يلاحقه ومعترض يحول دونه أينما توجّه، قال سبحانه: (ومَن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما. ومَن يكسب خطيئةً أو إثما ثم يرمِ به بريئاً فقد احتملَ بُهتانا وإثما مُبينا). «سورة النساء ١١١ - ١١٢».

وللإيمان والكفر آثار يُحسّها المؤمن والكافر في أغلب أوقاته، ولذلك صلةٌ بكل جوانب حياته، سعادةً وشقاءً، قال عز وجل: (فمَن يرِد اللهُ أن يَهديه يشرح صدرَه للإسلام ومَن يُرد أن يُضِلّه يجعل صدرَه ضيِّقاً حرجا كأنما يصّعّد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون. وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقومٍ يذّكرون) «سورة الأنعام ١٢٥ - ١٢٦».

وأمثلة هذا في القرآن الكريم أمثلةُ الحياة بكلِّ ظواهرها تنوعاً وتجدُّداً، مِما تنظرُه العين وتسمعه الأذن، ومما يتَعدّد مع اختلاف البيئة، ولا ينحصِرُ بزَمَن.

ومِن خصائص هذا المضمون أنه موافق لكل إنسان كائناً مَن كان شأنه منزلة أو عمراً أو فهماً أو أيّ خاصة تميزه من بني جنسه. فمِن ذلك الغواية التي خرج بها آدم وحواء مِن الجنة، قال عز مِن قائل: (وياآدم اسكُن أنتَ وزوجُك الجنة فكُلا مِن حيثُ شِئتُما ولا تَقْربا هذه الشجرَة فتكونا مِن الظالمين. فوَسْوَس لهُما الشيطانُ ليبدي لهما ما وُوري عنهما مِن سوآتِهما وقال ما نَهاكما ربُّكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا مَلَكينِ أو تكونا مِن الخالدين...) «سورة الأعراف ١٩ - ٢٠»

وهذه الموافقة إنما هي في استمرار المضمون وتجدّده، وفي توالي أجزاء هذا المضمون على نحو وأسلوبٍ يَستغرق كلَّ إنسان ويستولي عليه. فلا تزال المعصية يقعُ الناس فيها، ولا تزال أسبابُها تلازمها ولا سيما الشيطان وأحابيله التي تَخفى على الناس بل يجري الشيطان منهم مَجرى الدم.

وهذه المعصية بعد الإشراك بالله عزّ وجلّ مِن أبرز المعاصي وأفظعها إن لم تكن أبرزها . والناسُ جميعاً منذ كانوا على هذه الارض،

مَنْ نجا منها، فهو إن لم يقع فيها اقترافاً فقد سوّلت له نفسُه، وآمرَه الشيطانُ، وزيّن له أن يتهيأ لها، ويُصيب منها، ولو في سَبْحَةِ خيال.

والملاحظُ لهذه الظاهرة يجدُ أن أغلب شعوب الأرض تحاول أن تستخفي وهي تقع في المعصية، تستخفي بهاْ عند اقترافها، وتستخفي بها في أمكنة إتيانها وإرتكابها هنا وهناك وتستخفي بها أمام القانون والعرف، وتستخفي بها في صلة الزوج بالزوجة. فما معنى هذا؟

فإن الآية في مضمونها وفي أسلوبها كأنما تطابق وقائع هذه المعصية: تَنهى آدم وحواء عن اقترافها، تحذّرهُما وتنذرهُما عدوَّهما مِن النفس والشيطان، وتتوعّدُهما إذا ظلمَا نفسَيْهما، وانْصاعا لشهوتهما، وتقِفُهما على ما يفعلُه الشيطان مِن ألاعيب، ويُزيّنه لهما مِن مُتع ولذائذ، وتُريهما بأُم أعينهما كيف وقع أبواهما مِن قبلهما. إنها وقائع حية مؤكدة، تراها العين، ويَعيها الضمير، وتُحسُها الجوارح، ويرهبها القلب بما فيه مِن خَشية ربِّه.

ومِن ذلك قوله عز وجل: (يا أيُّها الذين آمنوا لا تَتّخِذوا آباءكم وإخوانكم أولياءَ إن استحبّوا الكفرَ على الإيمان ومَن يتولّهم مِنكم فأُولئك هم الظالمون. قُل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتُكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادَها ومساكنُ ترضَونها أحبَّ إليكم مِن الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربّصوا حتى يأتِيَ اللهُ بأمره والله لا يَهدي القوم الفاسقين) «سورة التوبة ٢٣ - ٢٤».

فالمخاطَبُ بهذه الآية أمام طريقين يجب أن يختار أحدَهما ولا ثالث لهما. طريق الكفر والضلال، وطريق الإيمان والهُدى. فهو إذا انتهى عما جُعل في فطرته من محبة ذوي قرباه ولا سيا أبيه وإخوته إن كانوا من الكفار فذلك الإيمان. وهو إن استجاب لفطرته، وغلبت عليه نفسه، واتخذ مِن آبائه وإخوانه ولياً، وتعلّق بحب زوجته وأولاده وماله، واطمأنّ إلى حياته الدنيا وتكالب على مَلاذِّها، ولم يجعل مِن ذلك أسباباً إلى آخرته،

ونسي مولاه عز وجل ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم فذلك شأن الفاسقين.

وهذا المخاطب بهذه الآية ومثلها مما يتصل بالتخيير بين ما يُشبع رغبة الإنسان عنده وتستجيب له فطرتُه، ويميل إليه، وما يعتقده، ويقيده في سلوكه بحسَب ذلك المعتقد، وهو ما عاشت البشريةُ له، واستولى عليها في طريق حياتها الطويل، لم يزل على حاله حيثما كان، وفي أي زمان وجد. فهو مِن هذا التراب، مُنجذِب إليه بما فيه مِن جَوْعات، لا تنقضي، يُحبُّ ويُبغض، يَنقُص ويَزداد، مثلَ الأرض التي يعيش فوقها، تزدهر بماء السماء، فتُنبت وتعطي، ثم تذوي وتُمحِل، لتبدأ دورة أخرى من الخِصب والعطاء. ولو أنه أطلق لِما في جِبِلّته، ولم تدركه عنايةُ السماء بما يُهذِّب من رغباته، ويَرقى به إلى مستوى يليق بجنسه، وبما نُدِب له على هذه الأرض، لانتهى منذ زمن وانقضت حياته، فلا يُعقل أن يحيا الإنسان بما جُبل عليه دون توجيه، ومعالم ينتهي إليها. ومصداقُ ذلك مِن حولنا اصطراعُ الشعوب والأمم، واضطرامُ الحروب، وكثرةُ الجوائح، التي اكتسبتها يداه، وجنى بها على نفسه.

وهذا الجانب مِن نص الكتاب العزيز، الذي يتناول الإنسان بفطرته في كل قضاياها التي تلزم عن وجوده على الأرض، إنما هو وجه من وجوه إعجازه[1]، ذلك لأنه مُشتمل على ما فيه مِن أفكار وتوجيه على كل حال تنشأ عن فطرة الإنسان وحوائجها. لا يُغفِل شيئاً منها. وأمثلةُهذا النوع من الناس الذين يُخالفون عما نُدبوا له، ومضَوا معَ جوعاتهم، وأذعَنوا لأهوائهم، لم يكن لهم غيرُ مصير واحد إن لم يَستدركوا أمرَهم، وتدركهم العناية.

ولهذا تكررت الإشارة إلى تلك النهاية المحتومة للاتعاظ والتدبُّر، قال عزَّ من قائل: (أولم يَسيروا في الأرض فينظروا كيفَ كان عاقبة الذين

١ - انظر إعجاز القرآن للرافعي ١٧٥

كانوا مِن قبلهم كانوا هم أشدَّ منهم قوةً وآثاراً في الأرض فأخذَهُم الله بذُنوبهم وما كان لهم مِن اللهِ مِن واق) «سورة غافر ٢١».

ومِن أبلغ الأمثلة على طغيان الإنسان وانسياقه مع هداه قِصةُ قارون الذي تنكّب الجادةَ، وقد آتاه الله تعالى ما آتى فقال سبحانه: (إن قارون كان مِن قوم موسى فبَغى عليهم وآتيناهُ مِن الكنوز ما إنّ مفاتحه لتَنوءُ بالعُصبة أُولي القوة إذ قال له قومُه لا تفرَح إن الله لا يُحب الفرحين) «سورة القصص ٧٦». لكنه أَخلد إلى الأرض وطغى وبَغى، وتعلّقت به أنظار ضعاف الإيمان بحُكم فِطرتهم، ونزعة أهوائهم، لكنّ الله تعالى لعِلمه بأمره، ورحمة بهؤلاء، وهو أعلمُ بهم، عاجلَهُ بالنهاية التي أدركَ معها هؤلاء الناسَ الذين اشتَهوا أن يكون لهم مِثْلُ ما كان له مِن المال حتى قالوا مُندهشين: (.. ويْ كأَنَّ اللهَ يبسُط الرزقَ لِمَن يشاء مِن عباده ويقدِر لولا أن مَنّ اللهُ علينا لخسَف بنا وَيْكأنّه لا يُفلِح الكافرون) «سورة القصص ٨٢».

ونصُّ الكتاب العزيز بمضمونه وشَكْله، تَسمعه الأُذن يُقرأ، وتنظرُه العين، وتتبعُ حروفَه وألفاظه وتراكيبَه، وتُقبل عليه النفسُ مُذعنة مطمئنة، ويظن بعضُ المغفلين، وهم يقفون على هذه الخصائص له أن الإتيان بِمثْله ميسور، وطوع خواطرهم، وفي مُتناول أيديهم، فيهجُمون على اللغة، يُلفّقون منها كلاماً، يَحسبونه لأول وَهْلة أنهم أتَوا بما أطمعتْهُم فيه أنفسهم، وجاؤوا بما زينته لهم أهواؤهم، ثم لا يلبَثون إذا راجعوا ما أَتوا به وقارنوا، لعلهم يكونون أول الساخرين مِن ذلك، واسْتَخذَوا أمامَ أنفسهم، وإن كانوا أو كان بعضُهم مِمن أُوتوا حظاً مِن رهافة حسٍّ، ورِقّةِ شُعور، تمنّى لو أنه أُصيب بالبكم، وانعقد لسانُه ولم يتفوّه بمثل ذلك الكلام. فهؤلاء الذين قال تعالى فيهم: (وإذا تُتلى عليهم آياتُنا قالوا قد سمِعنا لو نَشاءُ لقُلنا مثلَ هذا إنْ هذا إلا أساطيرُ الأولين) «سورة الأنفال ٣١».

وهذا وجهٌ مِن وجوه الإعجاز، رأيتُ التنويهَ به والإشارة إليه، وإن كان بعضُ كلام المتقدمين على الإعجاز ووجوهه اشتملَ عليه واقتضاه بُجْمَله.

ظواهر من
آثار الموسيقى القرآنية

إن بعض المدققين، من مؤرخي اللغة العربية وآدابها، قد علل مرونتها ومطاوعتها للمتكلمين، لما اختصت بها من موسيقية، حتى استوت على ما هو معروف من خصائصها قبل الإسلام، فأرجع ذلك إلى أنها لم تُكتب. وذكر أن ما كتب سوف يلحقه التطور والتبدل. وقد وافقَت بذلك مِن المتكلمين بها في بيئتها الأولى نفوساً سليمة الفطرة، لم تفسدها ما أفسد غيرها في بيئات أخرى [1] فمازجتها، وكانت بموافقتها لها خير مُعبِّر عن عواطفها وأفكارها في انسجام واتزان لا نظير لها.

وإذا سأل أحد عن بعض آثار هذه الظاهرة قلت: إن معظم الآثار التي تركها العرب لا نراها في غير نصوص الشعر، وشيء مِن نصوص النثر التي تغلب عليها أوزان تقرّبها من الشعر.

ولا يَخفى أن من عادة العرب حينذاك استماعها إلى الشعر يُنشِده قائلوه، وإلى الخطب. وتعلّقهم بعَقْد أسواق ومحافل من أجل ذلك، تذكرها مصادر تاريخ اللغة والأدب.

ولازمت العرب عادة الإنشاد والاستماع إلى الشعر يُنْشَد[2] بل حرَصَت على ذلك وتابعته إلى زماننا هذا.

واتصلت هذه العادة إذ كسدت سوق الشعر وانفضّت جماهير

١ - انظر تاريخ آداب العرب ٩١/١

٢ - انظر إيضاح الوقف والابتداء ١٠٤ والعقد الفريد ٢٨٣/٥ وشذرات الذهب ١١١/١

الشعراء، وانصرفت بهم السبل. وكان اتصالها تجديداً لها، وقوة في أصلها، ومحافظة على أصالتها في النفس العربية. فتمّ ذلك بنزول نص القرآن الكريم، وشروع المؤمنين بالرسالة بتلاوته وترتيل آيه والاستمتاع بترديد ألفاظه وجمله.

ولعل هذا الجانب مِن نص آي القرآن الكريم، كان أبرز الجوانب التي أثّرت في العرب، وملك عليهم أنفسهم لأول عهدهم بالدعوة حتى إن ما له[1] «من العذوبة في حس السامع، والهشاشة في نفسه، وما يتجلى به من الرونق والبهجة التي يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع في القلوب، والتأثير في النفوس، فتصطلح مِن أجله الألسن على أنه كلام لا يشبهه كلام».

ويمكننا أن نقف على آثار كُلها في أثر موسيقى القرآن. فمن ذلك ما مثَّل له أبو بكر الباقلاني فذكر أن وجوها من قريش بينهم أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بعثوا بعيينة بن ربيعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] «ليكلّمه، وكان حسن الحديث، عجيب البيان، بليغ الكلام، وأرادوا أن يأتيهم بما عنده، فقرأ النبي صلى الله عليه وسلم؟ سورة «حم» السجدة مِن أولها حتى انتهى إلى قوله: «فإن أَعرَضوا فقُل أَنذرْتُكم صاعقةً مثلَ صاعقة عادوثمود»، فوثب مخافة العذاب. فاستجْلَوه ما سمع. فذكر أنه لم يفهم منه كلمة واحدة، ولا اهتدى لجوابه.

وفي الإصابة خبرٌ يذكر أن جُبير بن مطعم قدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر، ولم يكن أسلمَ بعدُ، في صلاة الفجر، قال: فلما انتهى إلى قوله: (إنّ عذاب ربِّك لواقع، ما له مِن دافع) قال: خشيت أن يدركني العذاب، فأسلم[3].

---

١ ـ انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ٢٥

٢ ـ انظر اعجاز القرآن ٢٧ وتفسير القرطبي ٣٣٨/١

٣ ـ انظر الاصابة ٢٣٥/١

وروى ابن حَجَر كيف كان إسلام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بعد أن سمع سورة طه تقرأها أختُه[١].

وربما سأل أحد أو اعترض فقال: لعل جبيراً وعمر ومثلهما تهيأت لهما فرصة لا تتوافر لغيرهما، وهما يجيدان العربية ويتذوقانها، فأثر فيهما استماعهما إلى تلاوة آي من القرآن الكريم. فهل يكون لاستماع تلاوة بعض الآي الكريمة أثر في غيرهما، وإن كان لا يفهم العربية؟ وأما الذين كانوا على عِلم، وطلبوا الحق، بشأن خاتم الرسالات فقد قال عزّوجلّ فيهم إذ سمعوا، وكانوا يسمعون نص الآي العزيزة: (ولتَجِدَنّ أشدَّ الناسِ عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذينَ أشركوا، ولتجدنَّ أقربهم مودّةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأنّ منهم قِسّيسين ورهباناً وأنّهم لا يستكبرون. وإذا سمِعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى أَعينهُم تَفيض مِن الدمع مما عَرفوا مِن الحق يقولون ربَّنا آمنّا فاكتُبْنا معَ الشاهدين) «سورة المائدة ٨٢ - ٨٣».

وأما الذين لا يفهمون العربية فقد تعرَّض بعضهم لتأثير الاستماع إلى تلاوة آي القرآن الكريم. ففي لقاء أكاديمي مع رئيسة قسم اللغة العربية ببوخارست منذ أربع سنوات، ذكرت أنها كانت في الجزائر، وهناك بدأتْ تعلمها للغة العربية بتعلُّم اللهجة الجزائرية، وصادفها، وهي هناك، أنْ كانت في قرية جِهة الصحراء، وكان الفصل صيفاً قائظاً، والهواء ساكناً، والذباب منتشراً يطنُّ، يزيد في ضيق الناس، وكان الوقت أصيلا، وقد ارتفع صوتُ المذياع بتلاوة أحد المقرئين، قُبيل ساعة من مِدفع الافطار. ولم تلبث، بعد أن استقرّ بها المكان أنْ زايلها ضيقُها وإحساسها بالذباب وبالطقس. وذكرت أنها لم تجد تعليلا لذلك غير استماعها إلى صوت المقرئ.

وقد لاحظت ذلك أيضاً على الناس حتى الغنم والماعز، التي انتشرت أمام المنازل والخيام، فقد استكانت هي أيضا تجتر. ولم يكن هذا بدعاً. فقد

---

١ - انظر الاصابة ٤/٢٨٠

عهدت العرب أن تحدو الإبل وتُغنّيها، وتجعل الرجز حُداءها، فإذا هي مسترسلة في سعيها مطمئنة وادعة.

وهل انفرد القرآن الكريم بهذه الظاهرة المتمثلة في أداء نصّه مرتلاً منغوماً وحسن صوت؟ لا. لم ينفرد القرآن وحده من بين الكتب المقدسة ولا ما هو مثلها عند بعض أصحاب العقائد بذلك. فقد عهد أصحاب كلّ مِلّة سواء مَنْ كانوا مِن أهل الكتاب ومن كانوا مِن أهل العقائد الأخرى، أن يستمعوا إلى نصوص شرائعهم ومعتقداتهم منغومة، وبعضها تسمع على أنغام الآلات الموسيقية[١]. وخلت تلاوة نص القرآن عن ذلك، واعتمدت على صوت التالي فقط. وهذا امتياز لنص القرآن، ذلك لأن في أداء نصه هكذا يبرز صيغَهُ وتراكيبه، ويكشف عن خصائص العربية الموسيقية.

وجاء في آثار موسيقى القرآن شيء كثير فقد روى عبدالرزاق بسنَده عن عبدالله بن بردة يحدث عن أبيه قال [٢]: «سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت الأشعري أبي موسى وهو يقرأ فقال لقد أوتى هذا مِزماراً من مزامير داود فحدّثه ذلك فقال: الآن أنتَ لي صديق حين أخبرتني هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لو علمت أن نبي الله صلى الله عليه وسلم يستمع لقراءتي حبّرتُها تحبيراً».

ورُوي أيضاً عن أبي سلمة قال[٣]: «بينما أُسَيد بن حضير الانصاري يُصلي ذات ليلة قال أسيد: غشيتني مثلُ السحابة، فيها مثل المصابيح، والمرأة نائمة إلى جنبي وهي حامل، والفرس مربوط في الدار، قال: فخشيت أن ينفر الفرس فتفزع المرأة فتُلقي ولدَها، وانصرفت من صلاتي، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أصبحت، فقال لي: اقرأ يا أُسيد، وذلك ملَكٌ استمع القرآن».

---

١ - انظر المصنف ٢٨١/٢

٢ - انظر المصنف ٤٨٥/٢

٣ - انظر المصنف ٤٨٦/٢

ورُوي عن معْمر قال:[1] «كان عمر بن عبدالعزيز حسن الصوت فخرج ليلة يصلي في المسجد فجهر بصوته، فاجتمع الناس، فأرسل إليه سعيد بن المسيب: فتنْتَ الناس، فلم يعد لذلك».

ولم يكن ليقتصر هذا التأثير السمعي للقرآن في بَني البشر وبعض المخلوقات التي لها ما للإنسان مِن أجهزة خَلْقية وخصائصها كالسمع والبصر، بل تجاوزه إلى ما هو جماد لا حسَ له كالحجارة والتراب، قال تعالى: (لو أنزلْنا هذا القرآن على جبَل لرأيته خاشعاً متصدعاً مِن خشيةِ الله وتلك الأمثالُ نضربُها للناس لعلّهم يتفكرون) «سورة الحشر٢١»

ولهذا الأثر الخطير قاومَ المشركون الاستماع إليه، وتناهَوا عن ذلك، قال عزَّ مِن قائل: (وقال الذين كَفروا لا تَسْمَعوا لهذا القرآن والْغَوا فيه لعلكم تغلبون) «سورة فُصِّلت ٢٦».

وقد اتخذوا السببَ الموسيقي، وهم ينطقون بشيء يُلَفِّقونه للتأثير في المستمعين واستمالتهم، قال عزّ وجلّ: (وإنّ مِنهم لفريقاً يَلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه مِن الكتاب وما هُو مِن الكتاب ويقولون هو مِن عند الله وما هو مِن عند الله ويقولون على اللهِ الكذِبَ وهم يَعلمون) «سورة آل عمران ٧٨».

ولّما كان نص القرآن الكريم يُتلى على نحوٍ معلوم ألِفنا أن نسمعه في محافلِنا ومنازلنا، ومِن المذياع، فقد أُمرنا المولى العظيم بالاستماع والإنصات للرحمة التي تلزم عن الاستماع فقال سبحانه: (وإذا قُرِيء القرآنُ فاستمِعوا له وأنصِتوا لعلكم تُرحمون) «سورة الأعراف ٢٠٤».

---

(١) انظر المصنف ٤٨٢/٢

في حُسن الصوت بالقرآن

ولا غرو بعد هذا أن يأتي في الحثّ على حُسن الصوت بالقرآن ويمتدح بل يُؤمر به. فقد روى عبدالرزاق بسنده عن أبي هريرة قال[1]: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أذِن اللهُ لنبيٍ ما أذن لنبيٍ أن يتغنى بالقرآن». وروى أيضاً بسنده عن أبي هريرة قال[2]: قال النبي صلى الله عليه وسلم: لم يأذن الله لِنبي ما أذِن لنبي يتغنى بالقرآن. وزاد عبدالرزاق عمّن سمع أبا هريرة قوله: زاد فيه: يجهر به. وذكر في رواية أخرى.... ما أذِن لإنسان حسَن التَرنُّم بالقرآن. وفي رواية عن سعد بن مالك وهو أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال[3]: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس مِنّا مَنْ لم يَتغنَّ بالقرآن» وفي رواية لعبد الرزاق عن أنس قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لِكل شيء حِليةٌ وحلية القرآن الصوتُ الحسَن».

على أن بعض الأئمة المعدودين مثل ابن عُيَينة والليث وأبي سَلمَة بن عبدالرحمن فسّروا التغني بما يبعُد عن حُسْن الصوت. فقد فسّروه بالاستغناء به عما سواه مِن الكلام، وفسّروه بالجهر به، وفسّره آخرون بالتحزُّن به.

وهذا التوجيه لمعنى الأخبار يلغي ما تقدَّم من خبر عمر بن عبدالعزيز إذ جهرَ بصوته واجتماعِ الناس عليه، وإرسال سعيد بن المسيب

(١) انظر المصنف ٤٨١/٢ وأخرجه البخاري من طريق عقيل عن ابن شهاب الزهري ومن طريق ابن عيينة

(٢) انظر المصنف ٤٨٢/٢

(٣) انظر المصنف ٣٨٣ وهو في المسند ٧٥/٣

إليه قوله فتنْتَ الناس. وخبر أبي موسى الأشعري إذ سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فامتدح صوتَه بالقرآن بأنه أوتي مِزماراً مِن مزامير آل داود، وقول أبي موسى لِمَن أبلغه كلام الرسول: «لو علمت أن نبي الله صلى الله عليه وسلم يستمع لقراءتي حبَّرتُها تحبيراً».

ولا تناقض بين هذه الأخبار ولا سيما تفسير ابن عُيينة باستغناء القارىء للقرآن بقراءته عما سواه مِن الكلام، أي مما يتغنى به أو يتخذ سبباً إلى الغناء، وهو بقوله ذاك يرغّب الناس عما سوى القرآن الكريم مما يشغَل القلب عن ذكر الله تعالى.

ويؤكّد حسنَ الصوت بالقرآن أحاديث وأخبار لا شُبهةَ فيها. ولا دِلالة لها على غير حسن الصوت بقراءة القرآن. فقد روى عبدالرزاق بسنده عن طاوس قال[1]: «سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَن أحسن الناس قراءة؟ فقال: الذي إذا سمعت قراءته رأيت أنه يخشى الله ثم ذكر كلاماً لطاوس قوله: والله ما سمعت قراءة قطّ أطيب من قراءة حبيب.

ورُوي أيضاً عن ابن جريج قال[1]: «قلت لِعطاء: القراءة على الغِناء؟ قال: ما بأسُ بذلك. سمعت عُبيد بنَ عُمير يقول: كان داودُ النبي صلى الله عليه وسلم يأخُذ المِعزفة فيعزِف بها عليه، يُردّد عليه صوتَه، يُريد أن يَبكيَ بذلك ويُبكي».

وإذا كان غرضُنا في هذا الجانب مِن الموضوع تأكيدَ حُسن الصوت بالقرآن فلا يفوتنا أن نحتاط لِما يظن ظانّ أن قراءة القرآن التي نصّت عليها الأحاديث والأخبار، تتنزّه أن تكون غناء أو ما يُشبهه. وأغلبُ ما نَسمعه اليوم مِن تلاوة نص القرآن إنما هو بحَسب مضمون تلك الأحاديث

---

١ - انظر المصنف ٤٨٤/٢

والأخبار. وكلُ قراءة تجاوزت الحد المرعي عند الكافة إما أن تكون مُنفِّرة للناس، لأنها أساءت إلى جلال كلام الله عزّ وجل ومَعانيه الشريفة في نفوسهم، وإما أن تكون مُلفتة لجهُالهم الذين يستحبون مثل تلك الطريقة في أداء الآي الكريم، وهو شيء يوافق هواهم، ويسدُّ نَهمهم إلى الموسيقى، وعذوبة الصوت التي تُحرِّك فيهم نوازع النفس المتطرفة.

ومثل هذا الحديث عن حُسن الصوت بالقرآن الكريم، وتوقُّع الاختلاف في توجيه الأحاديث والأخبار فيه، ألا يثير الكلام على قيام المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعهد الصحابة بقراءة نص القرآن، والكيفية التي ينبغي على المسلم أن يتلوَ بها، واختلاف القارئين، وتوجيه الرسول الكريم والصحابة على عهده وبعد وفاته لهؤلاء الناس الذين أمسوا يتعبدون بنص الكتاب العزيز حفظاً وفهماً وقراءة ودرسا ودعوة؟

فإن الأحاديث والأخبار في هذا الموضوع وما يقتضيه كثيرة. ونكتفي منها بما يدُل على المراد، ويُغنينا عن الإطالة. ولنا في نصّ الكتاب الكريم أكثر مِن شاهد ودليل. قال تعالى يُخاطب رسوله الأمين: (يأيّها المُزّمِل. قُم الليلَ إلا قليلاً. نِصفَه أو انقُص منه قليلا. أَوْ زِد عليه ورَتِّل القُرآن ترتيلا) «سورة المزمل ١ ـ ٤ »

وقال عزّ مِن قائل على لسان رسوله عليه السلام: (إنما أُمرِت أن أعبُد ربَّ هذه البلدة الذي حرَّمها ولهُ كُلُّ شيء وأُمرِت أن أكون مِن المسلمين، وأن أتلو القرآن فمَنْ اهتَدىٰ فإنما يَهتدي لنفسِه ومَن ضلَّ فقل إنما أنا مِن المنذرين) «سورة النمل ٩١ ـ ٩٢ ».

وقال تعالى في كيفية القراءة: (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مُكْث ونزّلناه تَنزيلا) «سورة الإسراء ١٠٦ » أليس في هذا ما يؤكد كيفية في أداء النص القرآني، ألا يكفي هذا دليلا على وجوب قراءة القرآن

الكريم بنحو يفصح عن لفظه، ويتم تركيبه ويوضّح معناه.

وقد ورى عبدالرزاق بسندِه أن رجلاً سأل مُجاهداً[1] فقال: رجل قرأ البقرة وآل عمران في ركعة قيامُها واحدٌ، وسجودُها وركوعها واحد، وجلوسُها واحد أيُّها أفضل قال: الذي قرأ البقرة، قال: ثُم قرأ مجاهد: (وقرآنا فرقْناه لِتقرأه على الناسِ على مُكث) قال على تُؤَدة».

وروى أيضاً[2]: «عن أبي جَمرة الضَبُعي قال: قلت لابن عباس: إني رجل في كلامي وقراءتي عجلة، فقال ابن عباس: لأن أقرأ البقرة فأرتِّلها أحبُّ إليّ مِن أن أهُذّ القرآن كله».

ورَوى أبو داود بسنده عن [3] «عَلقمة والأسود قالا: أتى ابنَ مسعود رجلٌ فقال: إني اقرأ المُفَصّل في رَكعة فقال: أهذّاً كهذِّ الشعر ونثراً كَنثْر الدَقَل لكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ النَظائر السورتين في ركعة.... »

وذكر تفسير قوله تعالى: (ورتلناه ترتيلا) عن مجاهد فقال: بعضه إثر بعض[4].

وروى عبدالرزاق بسنده عن عطاء إذ سُئل عن الترتيل فأشار بيده أنه لا يستحِبُّه[5].

وقد ميز علماء القراءات ثلاثةَ أصناف من أداء النص القرآني وكيفيته هي: الحَدر وهو المَرتبة الثالثة من قراءة القرآن، فيها سُرعة وخِفّة، ولها صفات معلومة، والتدوير المرتبة الثانية، وهو وسَط بين الحَدْر والترتيل، وهذا أي الترتيل مُرادف للتحقيق الذي هو أول المراتب. ويكون بإتباع الكلام بعضه بعضاً على تَمهُّل وتلبُّث وفَهْم، وهو الذي نزَل

١ - انظر المصنف ٤٩٠/٢

٢ - انظر المصنف ٤٨٩/٢

٣ - انظر السنن ٥٦/٢ كتاب الصلاة. «مد القراءة»

٤ - انظر المصنف ٤٩٠/٢

٥ - انظر النشر في القراءات العشر ٢٠٧/١

به القرآن[1].

وقد ذكره مكي بن أبي طالب فقال [2]: يدُل على التَمهُّل، والتمهُّل يُعطي المَدَّ وهو الاختيار لإجماع أكثر القراء على ذلك، ولِما فيه مِن البيان، ولِما ذكرنا من الحديث وليجري ما هو مِن كلمتين على حُكْم إجماعهم على المَد فيما هو مِن كلمة، فكلُ حرف مدٍ ولين بعدَه همزة، والقراءة في إشباع المد وتطويله على قدْر قراءتهم وتمهُّلهم أو حَذْرهم، فليس مدُ مَن يَتمهَّل ويُرتِّل كمَدِّ مَن يحْدُر ويُسرع».

وهذا الكلام فيه توضيحٌ لِخصائص أصناف القراءة للنص القرآني، وفيه ظاهرة مهمة هي أن حروف المدّ واللين أكثر شيء دوراً في لفظ القرآن، ولا بد مِن ظهورها لضعفها، والقُراء في إظهارها في مواضع مختلفو الأداء، ولكن لا بُد مِن ذلك.

وأما الحديث الذي أشار إليه مكي في النص فهو أن أنَسَاً سُئل عن قراءة النبي عليه السلام فقال: كان يُمدّ صوتَه مدّاً [3].

ودلالة هذا أنّ الصوت بقراءة النص القرآني له خصائصُ المد والتمهّل والتَحسين والخَشْية التي تقدّم ذكرُها في حديث آخر إنما هي حال مِن استحضار القارىء عظمة ربه وجلال كبريائه وإدراكه أنه بين يَدي خالِقه ذي العزة والجبروت. وإن في النص القرآني تمام هذه المعاني، وموجبات هذه الحال التي تُهيمن على مَنْ يتلو النص الكريم. وهذا كله يقتضي الصوت الحسن المتحزِّن، وهو مالم نفتقد عند مَنْ سمع القرآن يُتلى وعند مَنْ تَصدّى لتلاوته. وفي ذلك ما يتحقق بظواهر الموسيقى الصوتية التي تمتلىء بها ألفاظ العربية، وتقترن بصيغها وتراكيبها، وتُوحي بها معاني النص القرآني بل تقتضيها وتحمل عليها.

---

(١) - انظر المصنف ٩٠/٢ ـ ٤.

(٢) انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ٥٧/١.

(٣) انظر صحيح البخاري «كتاب فضائل القرآن ـ باب مد القراءة» وسنن النسائي «كتاب الاستفتاح ـ باب مد القراءة» والدر المنثور ١٠/١

نصوص الأحرف السبعة ودلالاتها المستجدة

إني لأستعين بالله ربّ العالمين في كل حال، وأسأله عزّ وجلّ أن يكون قد فتح عليّ بما خطَر ببالي، ووقَر في صَدْري وأنا أتَهيأ لهذا الموضوع وأقرأ له وأنظر فيه.

فقد استوقفتني بعض آثار الأحرف السبعة، فجعلت أراجعها، وأسائل فيها نفسي: إنها رخصة مِن المولى تعالى لأمة هذا الكتاب العزيز بَل عِنايةٌ ورحمة وتوفيق بفضل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ليتسنى لِكلٍّ مَن يقرأ نص القرآن أن يقرأه وهو مطمئن، لا يجد حرجا في هَفوةِ لَفْظ أو نَبوة تركيبٍ أو تَعثّر صيغة لم يستطِيع تجنّبها، وكانت فوق مستطاعه، وغلبته عليه عادته في النطق والكلام. وهو مع ذلك وفوق ذلك مأجور بما أخبر به الصادق المصدَّق عليه السلام بكلٍّ حرف عَشْر حسنات، واللهُ عزّ وجلَّ يضاعف لِمن يشاء وماذا غير ذلك؟.

نعم، ههنا أشياء نُلِم بأصلها في هذا الموضع من البحث ونترك فروعها إلى مواضع أخرى يقتضي منهج الدرس تأخير تناولها. فما تلك الأشياء، وما أصلها الذي سَنُلم به؟

ولا بأس من سَرْد بعض الآثار في الأحرف السبعة، لتكون لنا عونا على بحث ما نريد، ومناقشته والخُلوص إلى الغرض الذي نَرى.

فمما رواه الطبري وغيرُه بإسناد صحيح أن[1] النبي صلى الله عليه.

١ - انظر تفسير الطبري ١/٤٠ ورواه الامام أحمد في المسند ٥/١٢٧

وسلم كان عندَ أضاة بني غفار قال: فأتاه جبريلُ فقال: إن الله يأمرك أن تُقرىء أمتَك القرآن على حرف، قال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تُطيق ذلك. قال: ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرفين. قال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تُطيق ذلك. ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك ان تقرىء أمتك القرآن على ثلاثة أحرف. قال أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن امتي لا تُطيق ذلك. ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على سبعة أحرف، فأيما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا».

وفي رواية أخرى بمضمون الحديث[1] «عن أبي قال: لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عند أحجار المراء فقال: اني بعثت الى أمة أميين منهم الغلام والخادم والشيخ العاسي والعجوز، فقال جبريل: فليقرأوا القرآن على سبعة أحرف».

وفي حديث آخر عن عبيد الله بن أبي يَزيد المكي أخبره أبوه[2] «أن أم أيوب أخبرته أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أنزل القرآن على سبعة أحرف، أيَّها قرأت أصبت».

ولهذا حدثت اختلافات كثيرة في تلاوة نصّ الكتاب العزيز، منها أن أُبي بنَ كعب رضي الله عنه شكى الشك وتلجلج به صدرُه إذ قرأ آية وقرأها آخر على غير قراءته وكِلا الرجلين ذكر أنه أقرأه إياها الرسول الكريم فلم يجد بُدّاً مِن الاختصام إلى الرسول وعندما وقف الرسول على أمرهما أجابَهما بما يؤكِّد قراءتيهما، وذكر لهما ما تقدَّم مِن رُخصة القراءة واستزادة الرسول مِن التَرخيص حتى بلغ الستة أو السبعة[3].

وكذلك كان لعمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ راوده الشك وقد اختصم هوورجل خالفَه في القراءة فعرف الرسول عليه السلام ذلك في

(١) انظر تفسير الطبري ٣٥/١ ورواه الامام احمد في المسند ١٣٢/٥

(٢) انظر تفسير الطبري ٣٠/١ والمسند ٤٣٣/٦

(٣) انظر تفسير الطبري ٣٣/١

وجهه، فضرب صدر عمر» [1] وقال: ابعَد شيطانا، قالها ثلاثا، ثم قال: يا عمرُ إن القرآن كله صواب، ما لم تجعل رحمة عذابا أو عذابا رحمة».

وهناك غير هذه الأخبار اجتزأنا بما ذكرنا لوضوح دلالتها على المراد. والآن أي شيء تعني هذه الأخبار ولا سيا من حيث ذكرُها الرخصة باختلاف القراءة ووقوع هذا الاختلاف، وصحة الإخبار بذلك كله؟ فثبوتُ الاختلافِ وثبوتُ وقوعه، والرخصة به إنما يعني أن النص القرآني المدون بين دفتي المصحف ما زال منطويا على ذلك الخلاف، يوضحه رسم المصاحف الذي تناقله علماء الرسم ودرَسه الباحثون في اختلاف رسم المصاحف ونقطها، ووقف عليه علماء القراءات. ولا بد مِن أن نؤكد ظاهرة قوية تتصل بنص القرآن هي أنه يُؤخَذ مقروءاً ويُسمع مرتّلاً، وهو بهذا تظهر وجوه نطقه بحسب طرق أخذه المعروفة الموثوقة، وقد تضمّن خصائص اللسان العربي المختلف بالبيان، المتباين بالنطق والكلام[2] ولا سيا المتخيَّر منه المجانب للشاذ والحوشي، الرفيع عن ضَحْل المعنى ومضطرب العبارة، الذي جاء في وصفه قول ابن جرير [3] «فالواجب أن تكون معاني كتاب الله المنزَّل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لمعاني كلام العرب موافقة، وظاهره الظاهِر كلامِها مُلائما، وإن باينه كتاب الله بالفضيلة التي فضل بها سائر الكلام والبيان».

ففي ذلك الاختلاف ووجوهه التي يتيحها رسم المصاحف ويبيحها إسناد القراءة، وتتسع لها وجوه العربية وفرة مِن خصائص نُطق صيغ اللغة القرآنية سواء في أصواتها أو في مفرداتها أو في تَراكيبها، مما يتيح للقارىء بوجه من تلك القراءات المتعددة أن يأتي بما لم يأت به سواه مِن الإيقاع الصوتي وعذوبة النطق.

ولم يكن هذا ليكون لولا الرُخصة بالقراءة والسَعة اللازمة عنها في

(١) انظر تفسير الطبري ٢١/١

(٢) انظر تفسير الطبري ١٢/١

(٣) انظر تفسير الطبري ١٢/١

نُطق الصِيَغ وثبوت تلك الرخصة في رسم المصاحف واختلافها وبقاؤها بل استمرارها ما اتصل سنَد القراءة واحتمل خطّ المصحف واتسعت وجوه العربية.

وإذا كنا ننتظِر أن نقف على آثار الأحرف السّبعة في هذا الجانب، ونرغب في أمثلة توضّحها، فذلك ما نرجو أن نستوفيه عند الكلام على مذاهب اختيار القراءة وعِلله.

ولكن ليس قبل الإلمام ببعض خصائص العربية ومصادر الموسيقى فيها، ثم مصادر الموسيقى في النظم القرآني. ففي استيفاء ذلك تَمهيدٌ لآثار الأحرف السبعة في هذا الجانب، ومذاهب اختيار القراءة.

مصادر الموسيقى في العربية

الله عزّ وجلّ مِن قائل أعلمُ حيثُ يجعل رسالته. فهل كانت العربية في عِلم المولى سبحانه مِن أسباب إنزال آخر الكتب السماوية بها لِما تختص به مِن الموسيقى في أصواتها وصيغها ألفاظاً وعباراتٍ، ولِما كان تهيأ لها مِن ذلك وافِر حظٍّ، حتى كانت سمة أهلها من دون كل شيء غيرها، فإذا هي تاريخُهم بكلّ أبعاد حياتهم، وإذا تاريخُهم لغتهم بتراثها مِن الشعر والكلام، تجري بها ألسنتهم، وترتفع بصيغها أصواتهم؟ ذلك ما لا يمكن أن يقطع به أحد. وإن كانت موسيقى قراءته تقوم بما في لغته من تلك الخصائص التي تنطوي عليها عناصر العربية اللفظية صوتية كانت أو صيغية.

وحسبنا أن نُلمّ بجانب من هذا كي يظهر لنا الأصل الموسيقي الذي توافر في اللغة وعناصرها حتى تَمّ، وكان للنص القرآني مُماثلٌ مِن لغته، يرجع إليه المتحدِث بتلك اللغة التي أَلِفَها وجرت منه مَجرى العادة، واستغرقته في ذوقه ومُختار كلامه ولا سيما الشعر.

ولا مندوحة لنا في هذا الإلمام عن التريث عند عناصر اللغة وأمثلة منها وبعض آراء علمائها. فأصوات العربية التي اشتهرت، وعرض لها اللغويون على مدى الزمان هي تسعة وعشرون حرفا، تمثل بصورتها المكتوبة تلك الأصوات، وهي في العدد والنطق تتجاوز ذلك العدد، فتبلغ ستة وثلاثين. وتتجاوز أيضا فتبلغ نيفا وأربعين، لكن هذه الزيادة كما ذكر سيبويه شاذة. وهذا مرهون بالمُستعمَل منها في الكلام الفصيح ولا سيما لغة القرآن الكريم [١].

---

١ ـ انظر الطراز ٣/٢٢٠.

ومرجع هذا إلى مواقع تلك الحروف في الكلام وفي مخارجها من جهاز النطق كما لاحظ ذلك اللغويون وتتبعوه بالدراسة والتمحيص، حتى رصدوا أصناف الأصوات ورموزها الكتابية فوجدوا [١]: «أن كل قبيلة تهذّب في مَنطقها باعتبار ما أَلِفته وعلى مقدار يكافِىء طبيعة أرضها راجعة في كل ذلك إلى الثِقل والخِفّة، فكل ما رفضته العرب في الجُملة أو عدلوا عنه إلى غيره من هيئات المنطق، فإنما فعلوه استثقالا، وكل ما قبلوه أو عدلوا إليه فلخفته على ألسنتهم، وهذا مذهب كل مَن يَستبطن أسرار لغتهم ويتتبع هيآتهم حَتّى جَعلوه في تقدير الكلام علة ما لا تظهر له علة».

وللقرآن الكريم أثرٌ بعيد جداً في هذا الجانب مِن الدرس اللغوي العربي مادةً ومنهجاً ونتائج. وإذا كنا نرى في محاولة الخليل بن أحمد في أول معجم مبني على الجانب الصوتي فإن الذي عاصروه وجاءوا بعده تابعوا هذه الخطوات وانتفعوا بتمييز الأصوات. فابن دُريد يمثّل طائفة من اللغويين في دراسة أصوات العربية إذ [٢] «نظر إلى مواقع الحروف في كلام العرب باعتبار الأسباب اللِسانية في دورانها، فرأى أن أكثر الحروف استعمالا عندهم، الواو والياء والهمزة، وأقل ما يستعملون منها لتفاوتها في الثِقل على ألسنتهم: الظاء ثم الذال ثم الثاء ثم الشين ثم القاف ثم الخاء ثم العين ثم النون ثم اللام ثم الراء ثم الباء ثم الميم، أما باقي الحروف فهي بين المنزلتين».

فهل اقتصر جهد هؤلاء على التمييز لذاته أو أنّ هذا كان سبباً إلى غرض آخر يتصل باستعمال اللغة، بل بغاية بعيدة من استعمال اللغة؟

فإن النظر في معالجة هؤلاء الأَقدَمين لصوت مِن أصوات اللغة تَكفينا مؤونة الإجابة المطلوبة. فالضاد الضعيفة إن مخرجها على ما ذكر

١ - انظر تاريخ آداب العرب ٩٨/١

٢ - انظر تاريخ آداب العرب ١٠٣/١

سيبويه [١] من الجانب الأيمن، وإن شئت تكلّفتَها مِن الجانب الأيسر وهو أخفّ، لأنها مِن حافة اللسان مطبقة. وقال الفارسي: كما إذا قلت: ضرب، ولم تشبع مخرجها «أي الضاد» ولا اعتمدتَ عليه ولكن تُخَفِّفْ وتختلس فيضعف إطباقها. ويقول السيرافي إنها في لغة قوم ليس في لغتهم ضاد. فإذا احتاجوا إياها مِن طرف اللسان وأطراف الثنايا، وربما تكلفوا إخراجها من مخرج الضاد فلم يتأت لهم فخرجت بين الضاد والظاء».

ولم تنفرد الضاد باهتمام أهل اللغة دون غيرها من الأصوات، لكنها مِن بين مجموعة أصوات تكلّف الدارسون منذ عهد مُبَكر أن يَزيدوا في إيضاحها. وكذلك كان اهتمامهم بصوت الهمزة وما يلحقها من تسهيل وتخفيف. وأصوات المد واللين، وأصوات الذَلَق والانحراف أي الراء واللام.

غاية هؤلاء الدارسين من هذه العناية بالأصوات إنما لانها[٢] «لا بد مِن كونها مؤلفة تأليفاً يسهُل النطق به ويرِق على اللسان ويعذُب، فإذا تباعد المخرجان كان أحسن ما يكون وألطف، وإذا تقارب المخرجان كان دون ذلك في الحسن كقولك (أمر أب) فإن الهمزة من الحَلْق والباء والميم مِن الشفة. فلا جَرم كان حسناً بخلاف قولنا (هعخع) اسم شجر، فإن تأليفه متنافر لّما كانت المخارجُ متقاربة لأنها كلها من الحَلْق، فلهذا صعُب مخرجها على اللسان، لِما فيها مِن الثقل، وهكذا قولنا (مَلَع) فإنها ركيكة التأليف لما كانت متقاربة المخارج، فإن حروفها كلها من الفم والحلق، لكن لّما تقدّم حرف الفم ثقُلت، فلو تقدّم حرف الحلق كان حسَناً، فإذا قلبْتَ تأليفها بـ (علم وعمل) كان رقيقا خفيفا....»

وتجاوز هؤلاء هذه الغاية إلى دقة، هي اليوم من شأن تمنهج الدارسين المحدثين تتمثّل في قياس كمية الصوت وموقعه واختلاف هذا الموقع، وأثر

١ - انظر تاريخ آداب العرب ٩٨/١

٢ - انظر تاريخ آداب العرب ١١٩/١

النطق به في مواضع شتى من صيغ الكلام وأثر الموضوع في هذا الصوت من الصيغة أو ذاك، ومؤدى الصوت في تلك الحال وإيحاؤه من زيادة دلالة وصوتية في صيغ الكلام[1].

وبالرغم من أن العربية تفيد بصيغ كلامها وتراكيبها الغرض، وتسوق المعاني، فإن الحركات ولا سيما التي أؤتلف على أنها إشارات إعراب، فهي من وجه دلالة على مستوى مستعمليها العقلي، وهو ما أشار إليه عده من مؤرخي اللغات اليوم، حتى جعلوها إذ استعملت لأول مرة ثورة حقيقية في عالم الفكر واستعمال اللغة بعد أن ثَبت فضلُ إيجادها للآشوريين ثم الفينيقيين ولم تزل في بعض تراث السُريان. وتظهر في نصوص كتابة رأس شمرا الأُوغارتيه. وكيف أنها على صِغرها وسذاجة شَكْلها إنما تُفيد معاني دالة (٢) وتترك في الأُذن صيغاً وأصواتا مميزة كأنما هي ترجيعات أصوات في نَسق دَقيق.

هذا غير الحركات التي تدخل في الصيغ ومباني الكَلِم لتفرّق بينها، وتميز أجناسها وتلك غاية في الدلالة التي تمتاز بها العربية من بين لغات الإعراب جميعا.

ومِن حيث صلة هذه الحركات بالموضوع فإنها تُمد الكلام وتراكيبه بألوان من الأَنساق الموسيقية المتناسبة، فيتآلف الكلام أصواتاً وألفاظاً وصيغاً وتراكيب، والحركات بعض الأصوات، فإذا هو مثل الماء الجاري في جداول وسَواق لا يَعوقه شيء. وأعذب بصوت الماء الجاري في أذن مَن أَصغى.

وبلغ الاهتمام بالقوم أن خالفوا في بعض الصيغ زيادة في طلبِ التناسب ورعاية لموسيقية الكلام. فمِن ذلك إتيانهم صيغة مضارع «فعَل» على «يفعَل» بفتح العين لا بضمها كما يجب أن تكون، إذا كانت عين

---

١ ـ انظر الطراز ٢٢١/٣

٢ ـ انظر تاريخ آداب العرب ١١٢/١، ٢١٨

الكلمة أو لامُها أحدَ الحروف الحَلْقية الستة نحو قرأ يقرأ، جبه يجبه، فخر يفخر وأمثالها، لم يفعلوا ذلك إلا فِراراً مِن الثقل والتباعد بين الأصوات وتنافرها، واختاروا الفتحة على الضمة والكسرة، لأنها أقرب إلى حروف الحَلْق [١].

وبعض الفصحاء من السلف والأقوام المشهود لهم بالفصاحة اشتهر عنهم أنهم كانوا يفتحون الحرف الحلقي إذا انفتح ما قبله في كل حال، كذلك كان ديدنُ أبي عبدالله الشَجري وهو مِن عُقيل.

ومِن أمثلة ذلك ما ذكره ابنُ جِنّي نحو:

يعد وهو محموم، وقولُ كُثَيِّر:

له نعَل لا تَطَّبَى الكلبُ ريحَها ... وإن جُعِلت وسْط المجالِس شُمَّتِ

وقول أبي النَجْم:

وجبَلاً طال معدّاً فاشْمَخَرْ ... أشمَّ لا يستطيعه الناسُ الدهَرْ

وهو مذهب للبغداديين وشَيء قاسه الكوفيون، ورفض البصريون قياسهُ [٢].

ولا تظهر الخاصة الموسيقية في الأصوات والألفاظ والحركات والصيغ كما تظهر في التراكيب، ذلك لأن عناصر الكلام إنما أهميتها في صيغ تراكيبه وعباراته التي تؤدى عن المعاني والأفكار.

ويَعدو أمرُ هذا أن يكون نَظْماً للكلام وتأليفاً للألفاظ. ولو كان كذلك لَما كان للإعجاز ذِكْر، ولما اهتدى إليه الدارسون. وإنما الأمر تأليف للألفاظ، وسوقٌ لها على وجوه من ورائه رؤية وتدبير، ومعه ألوان مِن التفكير، وبه شُكول من المعاني والآراء، تشتد باللفظ إلى سوية مِن نَظْم

١ - انظر شرح الملوكي ٣٩

٢ - انظر الخصائص ٩/٢

الكلام بُمقتضى الاغراض. لا تفوت أرباب الإعجاز، وأصحاب النظم والنثر.[1]

« واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر ويغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثانٍ منها بأول، وأن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعاً واحداً، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك ».

ومثال ذلك التقسيم في قول القائل:

لو أن ما أنتمُ فيه يدوم لكم ظننت ما انا فيه دائما أبدا
لكن رأيت الليالي غير تاركة ما سرَّ مِن حادث أو ساء مطردا
فقد سكنتُ إلى أني وأنكم سنَستجد خلاف الحالتين غدا

قال الجُرجاني في ذلك [2]: « قوله » سنستجد خلاف الحالتين غدا « جمعٌ فيا قسم لطيف. وقد ازداد لُطفاً بحُسن ما بناه عليه، ولطف ما توصل به إليه، مِن قوله: « فقد سكنت إلى أني وأنكم ».

وإذ قد عرفت هذا النَمط مِن الكلام وهو ما تتحِد اجزاؤه حتى يوضع وضعاً واحداً فاعلم أنه النمط العالي والباب الأعظم والذي لا ترى سلطان المزية يعظم في شيء كعظمه فيه..

ولو أردنا تتبع خصائص الكلام الذي هكذا شأنّه ومعرفة أسباب علوه لتجاوزنا غرضنا في هذا البحث، وانحَزْنا إلى مواضيع أخر ليس من غرض الدراسة تناولها.

والكلام المعدود بكل أصنافه لا بُدّ معقودة أسبابُه على خصائص ترجع إلى تناسب بين المعنى واللفظ. ولهذا فإن خُلوَّ طائفة معدودة من

١ ـ انظر دلائل الإعجاز ٧٣
٢ ـ انظر دلائل الإعجاز ٧٥

الأنبياء من تلك الخصائص التي يقتضيها النظم والتأليف أخرجها مِن ذلك الكلام العالي. قال الجرجاني [١] «اعلم أنّ مِن الكلام ما أنت تعلم إذا تدبّرته أن لم يحتج واضعه إلى فكر وروية حتى انتظم، بل نرى سبيله في ضم بعضه إلى بعض سبيل مَن عمَدَ إلى لآلٍ فخرَطها في سلك لا يبغي أكثر مِن أن يُنمّقها التفرق، وكمن نضّد أشياء بعضَها فوقَ بعض لا يُريد في نضده ذلك أن تجيء له منه هيئة أو صورة بل ليس إلا أن تكون مجموعة في رأي العَيْن. وذلك إذا كان معناك معنى لا يحتاج أن تصنع فيه شيئاً غير أن تعطف لفظاً على مِثله كقول الجاحظ: «جنبك الله الشبهة، وعصمك مِن الحَيرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسباً، وبين الصدق سببا، وحبب إليك التثبت وزيّن في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التَقوى، وأشعر قلبك عِزّ الحق، وأودع صدرك برد اليقين، وطرد عنك ذُل اليأس، وعرّفك ما في الباطل مِن الذِلة وما في الجهل مِن القِلة....»

وإذا اعترض أحد على هذا الإجمال لِذكر الخصائص، فقال: أليست تلك الخصائص في اللفظ ووجوه النظم التي تشتمل عليها، وإن لم تكن، فأين نجدها؟

والحق أن استعمال اللفظ وتَخيُّر نظمه مِن المحاسن المعدودة فصاحة وبلاغة، ومأتى ذلك مِن مُشاكلة اللفظ للفظ، ومِن القصد بِوَضعها حيث وضعت مِن التراكيب [٢] فهل يكفي أن تكون مُشاكلة، أو أن يعرف أن هناك مُشاكلة يجب مراعاتها، وأن يكون هناك قَصْد إلى وَضْع من التراكيب حتى يُفهم جانب مِن الغرض ويوقف على شيء مِن المراد، وينكشف معه خفيُّ الصنعة؟ أليسْ اللفظ متعدد الصيغة، مختلف الأصوات متباين الدلالة؟ والتركيب الذي سوف يشتمل عليه، أليس هو صيغة بذاتها تتعدّد بسبب مِن خصائص اللغة وسَعة من الاستعمال، وبُمقتضى المعاني التي تتكاثر باختلاف أغراض الحياة، وتباين

(١) انظر دلائل الإعجاز ٧٦

(٢) انظر الطراز ٢٢٥/٣

المستعملين؟[1] وإنما نحن في أمور تدرك بالفكر اللطيفة، ودقائق يوصل إليها، بثاقب الفَهْم، فليس دَرْك صواب دركاً فيما نحن فيه حتى يشرف موضعه، ويصعب الوصول إليه، وكذلك لا يكون ترك خطإ تركا حتى يحتاج في التحفظ منه إلى لطف نظر، وفضل روية، وقوة ذهن، وشدة تيقظ وهذا ينبغي أن تراعيه، وأن تعني به، حتى إذا وازنت بين كلام وكلام ورأيت كيف تصنع فضمَمت إلى كل شكل شكلَه، وقابلته بما هو نظير له، وميّزت ما الصنعة منه في لفظه، مما هي منه نظمه».

وهل من داع إلى ذكر ما النظم محتاج إليه مما تقدم الكلام عليه سواء الصوت والصيغة أو اللفظة والدلالة؟ هذا خلاف ما انتهينا من ذكره قبل قليل. فالتركيب بعد هذا هو مجموع الخصائص التي تقدم ذكرها والتي أغفل ذكرها أيضا. وهي غاية كل الخصائص الصوتية التي للعربية، تضمحل إزاءها خاصة الصوت اللغوي المتفرد، وصيغة اللفظ، وصيغة التشكيل الناشئة عن وظيفة اللفظ في العبارة والأسلوب، وصيغة الخصائص حتى كأن النظم بخصائص التركيب المختلفة حَشد مِن العازفين على آلات متباينة، هَمُّهم أن يشتركوا في صُنع قطعة موسيقية توحي بموضوع محدَّد.

ولعل تبيّن هذا في دراسة النص القرآني ولا سيما الوجه الموسيقي أظهر وأوفر، ذلك لأن احتشاد هذه العناصر متوافرة في صيغ العربية عربية القرآن ومطردة فيها يلازمها المعنى والأفكار والغرض في تناسب أعجز أهل اللغة، الذين عايشوا نزول النص القرآني، والذي أتوا بعدهم حتى ذروة عصور ازدهار العربية. والنظم يلخِّص هذا كله.

وهو ما ذهب إليه أغلب الدارسين لظاهرة الإعجاز[2] «ذلك لأنه أول شيء يؤدي إلى أن يكون القرآن معجزاً لا بما به كان قرآناً وكلام

---

١ - انظر دلائل الإعجاز ٧٧

٢ - انظر دلائل الإعجاز ٣٩٨

الله عز وجل. لأنه على كل حال إنما كان قرآناً وكلام الله عز وجل بالنَظْم الذي هو عليه». ويشتمل النظم على عناصر مختلفه متداخلة، بائتلافها واجتماعها على هذا النحو أو ذاك من العبارة القرآنية كان النظم القرآني.

وتلك العناصر ولا سيما اللفظية منها بكل أنواع صيغها. وخصائصها هي سِر الإعجاز الموسيقي في النص القرآني. فما العناصر المذكورة وما أصنافها. وما أمثلتها. وكيف أدت هذا الجانب من الإعجاز؟

فالإجابة عن هذا كله في تناول الدراسة له، وبحثها في خصائصه، والكشف عن آثاره في العبارة القرآنية، وذلك مضمون المواضيع التالية من هذا البحث وفصولها.

مصادر الموسيقى في النظم القرآني

لا سبيل إلى الكلام على هذا الجانب مِن الموضوع، وهو بُحَقّ أصلُه ولبابُه، إلا من حيث تتوافر الخاصة الموسيقية في العبارة القرآنية. وهي متوافرة في مَفاصلهِ. ففي حديثٍ عن أُمّ سلمة رضي الله تعالى عنها يَرويه عبدالله بن أبي مُليكة[1] «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ قطع قراءته آية آية يقول: بسم الله الرحمن الرحيم. ثم يقف ثم يقول: الحمد لله رب العالمين. ثم يقف ثم يقول: الرحمن الرحيم مالك يوم الدين».

وإذا كان هذا الخبر في ظاهرة الوقف فإن فيه دلالة على الغرض، ذلك لأن فئة مِن القُراء كانوا إذا قرأوا جعلوا أواخر الآيات فواصل، وإذا وجدوها تنتهي بالياء كانت لهم مذاهب في كل ياء حذفا وإثباتا في الوصل والوقف واحتجوا[2] «بأن رؤوس الآيات بمنزلة رؤوس الأبيات وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها كما أن آخر البيت فَصْل، فحذفت من رؤوس الآيات كما تحذف مِن أواخر الأبيات، قال الأعشى:

ومِن كــــاشحٍ ظـــــاهرة غَمْرُهُ   إذا مـــا انتسبْـــتُ لــه أنكرَنْ

أراد أنكرني، فحذف الياء اكتفاء بالكسرة منها، قال لبيد:

فــانتَضلنــا وابنُ سلمــى قــاعــدٌ   كعتيــق الطــيرِ يُغضي ويُجَــلْ

---

١ ـ انظر سنن الترمذي ١٥٢/٢ وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢٣١/٢، ٢٣٢ وله شاهد، واختاره أبو عبيد.
٢ ـ انظر إيضاح الوقف والابتداء ٢٥٩

وقال الآخر:

إذا حـــاولـــتَ في أَسدٍ فُجوراً فإني لستُ منك ولستَ مِنِّ

أراد: ولست مني، فحذف، وقال أيضاً:

وهُم وَردوا الجِفـــارَ عـــلى تميمٍ وهُم أصحـــابُ يومِ عُكـــاظَ إنِّ

أراد: إني، فحذف.

وهذه المشابهة بين أواخر الآيات والقوافي تقتضي تناول أبرز الظواهر التي نشأت عن نهاية العبارة، أعني السَجْع والفاصلة ووجوه الاختلاف بينهما وصلتهما بالبلاغة والبيان.

فأما السَجْع فقد ألمحنا إليه قبلاً بما لا يُغني عن ذكره هنا، وذلك للفرق بينه وبين ما يُخيل أن يشبهه في القرآن ولكنه يتنزه عنه. قال تعالى: (كذّبتْ قبلَهم قومُ نوحٍ فكذّبوا عبدنا وقالوا مجنونٌ وازدُجِر. فدعا ربَّه أَني مغلوب فانتصِر. ففتَحْنا أبوابَ السماءِ بماء مُنهَمر. وفجرْنا الأرضَ عيوناً فالتقى الماء على أمرٍ قَد قُدِر. وحملناهُ على ذات ألواحٍ ودُسُر. تجري بأعيننا جزاءً لِمَن كان كُفِر. ولقد تَركْناها آيةً فهَل مِن مُّدَكر. فكيف كان عَذابي ونُذُر. ولقد يَسَّرْنا القرآن للذِكْر فهل مِن مُّدكر) سورة القمر «٩ - ١٧» وأمثلة ذلك في كتاب الله العلي الحكيم كثيرة، لكن الآيات السابقة تكفي مِن غيرها، وتدُل على الغرض.

وتقدَّم مِن السَجْع أمثلة، ومنه أيضا قول بعض الكُهّان: [١] «والأرض والسماء، والغراب الواقعة بنَقعاء، لقد نفَر المجد إلى العشراء».

وقول مسيلمة الكذاب[٢] «الفيل، ما الفيل، وما أدراك ما الفيل؟ له ذنب وَثيلٌ، وخرطوم طويل».

---

١ - انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ٩٨

٢ - انظر البرهان الكاشف ٥٤

وقول أعرابي إذ حضر صلاة جماعة فقُدِم فقرأ:[1] «بعد الفاتحة: ألا يا مُهلِكَ الفِيل، ومَن سار معَ الفِيل، وكيدِ القوم في تَبّ وتَضليل بطَيْر صبَّهُ الله على الفيل أبابيل. ضحى مِن طينٍ سِجيل فصار القومُ في قَاع كعَصْف مأكول». وقرأ في الثانية: «قد أفلح مَنْ هَيْنَم في صلاته وأطعمَ المِسكين مِن مِخلاته، واجتنب الرجْس وفعلاته بورك في بقره وشاته».

وتبدو المفارقة بين الآيات وأمثالها مِن القرآن الكريم وأمثلة السجع في ظاهرة قوية: تلك أن المعاني في الآيات إنما انتهت إلى آخر كل آية بلفظ هو جزء مِن المعنى، ولا يجمل غيرُه في موضعه. والألفاظ التي انتهى إليها كلام السَجْع إنما هي مقصودة لوزنها وصيغتها، أي أن المعنى في الكلام المسجوع تابع للفظ محكوم به[2] وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه بألفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه، وبين أن يكون المعنى منتظما دون اللفظ. ومتى ارتبط المعنى بالسجع، كانت إفادة السجع كإفادة غيره، ومتى انتظم المعنى بنفسه دون السَجْع، كان مستجلبا لتحسين الكلام دون تصحيح المعنى».

وما جاء في تعريفه يوضح الغرض منه، فهو عند ابن الأثير: تَواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حَرف واحد. وعند الباقلاني: موالاة الكلام على وزن واحد. وقال ابن دُريد: سجعَت الحمامة. معناه: ردَّدت صوتها. وأنشد:

طرِبت فأبكتْكَ الحمامُ السواجع تميل بها ضحواً غصونٌ نوائع[3]

ومِن حيث الإعجاز لم يكن السَجْع مِن أسبابه ولا عِلله ولو كان كذلك لما تحيَّر المدعوون إلى التحدي في النص القرآني، لكنه كان من عادتهم، فلا يُعقل أن تنقض العادة بنفس العادة.

---

١ - انظر البرهان الكاشف ٥٥

٢ - انظر إعجاز القرآن ٥٨

٣ - انظر ذلك كله في المثل السائر ١١٤ وإعجاز القرآن ٨٦

بل إن هناك من الأخبار ما يقطع بنَبْذ هذه الظاهرة وبغضها. فقد ذكر أبو حامد الغَزّالي خبراً رواه الإمام أحمد وأبو يَعلى وابن السُني وأبو نعيم في كتاب الرياضة هو مِن حديث عائشة بإسناد صحيح أن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت للسائب: إياك والسَجْع فإن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا لا يَسجعون.

وروى البخاري نحوه مِن قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

وذكر أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن رواحة في سَجْعٍ ثلاث كلمات: «إياك والسَجْع يا بنَ رواحة».

وذكر خبر الرجل الذي جاء الرسول الكريم وقال: كيف نَدي مَنْ لا شربَ ولا أكَل ولا صاحَ ولا استَهلّ، ومثلُ ذلك يُطَلّ؟. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أسَجْعٌ كسجع الأعراب» وذكر خبراً آخر هو أن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال لابنه عمر وقد سمعه يسجَع: هذا الذي يُبغِضك إلي، لا قضيت حاجتك أبداً حتى تتوب[1].

ولما بلغ أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه كلام مُسَيلمة وسمعه قال[2]: «إن هذا الكلام لم يخرج مِن بال».

وقد يقع في الكلام شعراً ونثراً قولٌ مُتّزِن على مثال السَجْع، وليس هو عندهم بسجْع. فمِن ذلك قولُ البحتري:

تشكىّ الوجى والليلُ مُلتبسُ الدُجى غُريْريّـــــــةٌ مرْتٌ بقيعُهــــــا

وقوله:

قريب المدى حتى يكون إلى الندى عـدوّ البُنـى حـتى تكون معـالي

١ - انظر إحياء علوم الدين ٣٥/١

٢ - انظر ثلاث رسائل ٥٦

وذكر الباقلاني أنه رأى بعضهم يأتي بمثل هذا ويزعم أنه سَجْع مداخل[1]

ولمثل نظيره في القرآن الكريم نحو قوله تعالى:

(ثُمَّ يَومَ القِيامة يُخزِيهم ويقول أين شُركائي الذين كُنْتُم تُشاقّون فيهم) «سورة النحل ٢٧» وقوله: (أمرنا مُترفيها فَفَسقوا فيها) «سورة الإسراء ١٦» وقوله: (أحبَّ إليكم مِن اللّه ورسوله وجهادٍ في سَبيله) «سورة التوبة ٢٨».

وأقربُ شيء إلى هذا فواصل القرآن ومقاطعه فما وَجه إعجازها، أو ما رأي الذين نَرتضي كلامهم في الإعجاز القرآني؟ فالوجه الأول مِن إعجازها لا شكّ فيه، لأنه مصدر مِن مصادر الموسيقى، وهو ما سوف نوفيه حقّه بعدَ قليل. وأما الوجه الآخر مِن الإعجاز الذي ألح عليه الدارسون فأمره عند الجُرجاني[2] «أن الفواصل في الآي كالقوافي في الشعر. وقد علمنا اقتدارهم على القوافي كيف هو فلِمَ لم يكن التحدي إلا إلى فصول من الكلام يكون لها أواخر أشباه القوافي لم يعوزهم ذلك ولم يتعذر عليهم........».

والرأي عندي أن فواصل القرآن ومقاطعه إنما هي من أبرز مصادر الموسيقى وأبلغها إعجازا موسيقيا، ذلك لأنها تقابل القوافي في الشِعر. والقافية هي قرارة الوزن، وغايةُ الحركات والسكنات التي يبلغها الشاعر، وهي السِر الذي دعا كلَّ مَنْ أتى بشعره أو ساق نصاً بين يديه إلى أن يقول: أنشِدنا. والمشابهة التي كانت ينبغي أن تكون بين مألوف العرب في استعمال لغتهم ولا سيما الشعر ونصوص القرآن توضح ذلك. وأكثر ما في الكتاب العزيز أمرها كذلك قال عز وجل: «والنَجْم إذا هوى. ما ضَلَّ صاحبُكم وما غَوى. وما ينطِق عنِ الهوى. إن هو إلا وحي يوحى» «سورة النجم ١ - ٤».

---

١ - انظر إعجاز القرآن ٦٠

٢ - انظر دلائل الإعجاز ٢٩٦

وقال تعالى: (الرحمنُ. علّم القرآنَ. خلَق الإنسان. علّمه البيانَ. الشمسُ والقمرُ بحُسبان. والنجمِ والشجرِ يَسجدان. والسماء رفعَها ووَضَع الميزان) «سورة الرحمن ١ ـ ٧».

وهذا النحو مِن الآيات يُمثّل أحدَ صنفين مِن الفواصل لأن حروفها التي تنتهي بها متجانسة. والصنف الثاني هو الذي ينتهي بحروف متقاربة نحو قوله سبحانه: «ص والقرآنِ ذي الذِكر. بل الذين كفَروا في عِزّة وشِقاق. كم أهلكْنا مِن قَبْلِهم مِن قرنٍ فنَادوا ولات حِين مَناص. وعَجِبوا أنْ جاءهم مُنذرٌ مِّنهم وقال الكافرون هذا ساحِرٌ كذّاب. أجعَلَ الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشَيءٌ عُجاب. وانطلقَ الملأُ مِنهم أنِ امْشوا واصْبِروا على آلهتكم إنّ هذا لشيءٌ يُراد) «سورة ص ١ ـ ٦».

وبهذا فقد فارقت الفواصلُ الأسجاع لأنها [1] «حروف متشاكله في المقاطع توجب حُسن إفهام المعاني... فإذا كانت المُشاكلة وصلة إليه فهو بلاغة، وإذا كانت المُشاكلة على خلاف ذلك فهو عيب ولكنه.. »

« وفواصل القرآن كُلها بلاغة وحكمة، لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها....

والفائدة في الفواصل دلالتها على المقاطع وتحسينها الكلام بالتَشاكل وإبداؤها في الآي بالنظائر».

فهذه الخصائص التي في الفواصل القرآنية أفردَتْها مِن القوافي، لأن هذه لإقامة الوزن ومجانسة القوافي، وهذا ما حسَّنَ الكلام فيها. وهي لا تنتهي في صيغتها إلى المعنى، ولا تكتنف البيان عنه ولا تُميِّز منتهى الكلام ومقاطعه.

ولو فُقِد عنصر إقامتها للوزن أو مجانستها للقوافي ذهبَ حسنُها، وبطلت فائدتها في الاستعمال [2].

---

١ - انظر ثلاث رسائل ٩٧ وما بعدها.

٢ - انظر ثلاث رسائل ٩٨

وإذا أخذ قارىء القرآن، أي قارىء، بتلاوة النص الكريم، ولزم السكت على نهاية الآية وهي موضع الفاصلة وجدَ بها هذا النغم الذي لا ينضب بل إنها لقرارة تزيد القارىء والمُستمع في الأذن والنفس حالا تمتزج فيها أحاسيس وآثار تختلف باختلاف مضمون الآيات، فهي طمأنينة مرةً وخوفٌ مرة أخرى، وهي أشواق غارقة حينا ومعالم وحدود ظاهرة حينا آخر. فمِن ذلك قوله عزَّ من قائل: (اللهُ يبدأ الخلْقَ ثُم يُعيده ثم إليه ترجعون. ويومَ تَقوم الساعة يُبلِس المجرمون. ولم يكن لهم مِن شركائهم شُفعاءُ وكانوا بشُركائهم كافرين. ويوم تَقوم الساعة يومئذ يتَفرّقون. فأمّا الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات فهُم في رَوضة يُحبرون. وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب مُحضَرون. فسُبحانَ الله حِين تُمْسون وحين تُصبحون. ولهُ الحمد في السماوات والأرض وعشِياً وحين تُظهِرون) «سورة الروم ١١ - ١٨».

فإنها فواصل مُتّفقة في الحروف متباينة الغرض متعدّدته، ما بين خلق وجد وانتهى. هم فريقان أحدهم مجرم مشرك وأصحابٌ لهم، انتهوا إلى يوم الحساب وهم مختلفون مختصمون وآلوا إلى العِقاب وأحاط بهم العذاب. وثانيهم مؤمِن حقّق إيمانه بالعمل، انتهى إلى مُسْتقر رحمة ربِّه العلي القدير، لِيَجد الطمأنينة والثواب في رِحاب الجنة.

كلُ ذلك بقدرة القادر الذي له الأمر كله وتوجب ربوبيته على الخَلْق تسبيحه في كل حال.

ومنه قوله سبحانه في قصة أصحاب القرية ونصيحة مَن يسّره الله عز وجل لهم لِيَثنيهم عن ظُلمهم وطغيانهم. وكيف وقع هذا والنهاية التي انتهى إليها كلُ هؤلاء، وما صاحبَها مِن أحوال استغرقتهم، قال تعالى: (وجاء مِن أَقصى المَدينة رجلٌ يَسعى قال يا قومِ اتّبعوا المُرسَلين. اتّبِعوا مَنْ لا يسألُكم أجْراً وهُم مُهتدون. ومالي لا أَعبُد الذي فطَرني وإليه ترجعون. أأتّخِذ مِن دونه آلهة إن يُردْن الرحمن بضُر لا تُغن عني شفاعتُهم شيئاً ولا يُنقذون.

إني إذاً لفِي ضلال مُبين. إني آمنت بربكم فاسْمَعون. قيل ادخُل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون. بما غفر لي ربي وجعلني مِن المكرمين). «سورة يس ٢٠ ـ ٢٧».

ففي هذه الفاصلة المتكررة إيحاء بالطمأنينة واستسلام العبودية لرب عظيم والفرح بالنجاة مِن الضلال، وبعفو المولى وثوابه، وبالرغبة في الخير للآخرين.

ظواهر أسلوبية

وإذا كان الإعجاز عدة علل فالنظم رأسه وأكبر علله و [1] «ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تُخِل بشيء منها، وذلك أنا لا نعمل شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه».

واذن ففي كل باب وجوه وفروق. وهو ما يُهمنا في هذا البحث. ولا ريب أن في أغلب أبواب النحو شيئاً يوحي بنَغم، ويحدث معه توقيع ما ولكن سنتناول مثالاً منها، يظهر فيه الغرض الذي نعول عليه ونرجع إليه. وذلك المثال هو أسلوب الشرط والعطف.

فمِن ذلك قول أبي ذؤاب:

إن يَقتلوك فقد ثللت عروشهم بعُتيبة بن الحارث بن شهابِ
بأشدّهم كلَباً على أعدائهم وأعزهم فقداً على الأصحاب

ففي الشرط الذي تضمّنه صدر البيت الأول توازن لفظي مريح للأذن، وقد اقتضى المعنى عجُز البيت الأول والبيت الثاني الذي أبدل من العجز فجاء غاية في توازن العبارة التي بدأت باسم التفضيل متبوعاً بتمييز منصوب تعلّق به جارٌ ومجرور وعُطف عليه باسم تفضيل آخر وتمييز وجار ومجرور متعلقين بالتمييز، وقد تكرر حرف الجر نفسه.

---

١ - انظر دلائل الإعجاز ٦٤

وكذا قول الحارث بن وعلة:

قومي هم قتلوا أُمَيم أخي ... فإذا رَمَيتُ يُصيبني سَهْمي
فَلئِن عفوتُ لأعفُوَنْ جَلَلاً ... ولئِن سَطوتُ لأُوهِنَنْ عَظْمي

فقد وقع فيه ثلاث صيغ شرط لم يُفصل بين أداة الشرط وفعليها فاصل يخلخل توازنها اللفظي وتَوقيعها الصوتي.

ومن العطف نحوُ قولِ ذي الرمة:

هيَ البرء والأسقام والهَمُّ والمُنى ... وموتُ الهوى في القلب مِني المُبرح
وكان الهوى بالنأي يُمحَى فيمَّحي ... وحُبّك عندي يستجدُّ ويربح
إذا غيّر النَأي المحبين لم يكد ... رسيس الهوى مِن حبّ ميّة يبرح

فهذا العطف المتتابع بين الأسماء والعطف بين الأفعال في البيتين الثاني والثالث يورث توقيعاً له أثرُه في الأذن مستملح وله أثره في النفس مستغرق، وختم الشرط في البيت الثالث بِغاية التوقيع وبلغ به إلى قرارته.

ومثل قول أبي نواس:

تبكي فتذري الدُرّ عن نرجسٍ ... وتلطم الورد بعنّاب

وقول المتنبي:

بدت قمراً ومالت خُوطَ بانٍ ... وفاحَت عنبراً ورنَت غزالا

وزاد في حسن التوقيع اتفاق صيغ المعطوف والمعطوف عليه، والفصل بينها بصيغة نكرة منونة.

ومن ذلك في نص الكتاب العزيز شيء كثير، قال تعالى: (وإما يَنزَغنّكَ مِن الشَيطان نَزْغٌ فاستعِذ بالله إنه سَميع عليم. إنّ الذين اتّقَوا إذا مَسَّهم طائفٌ مِن الشيطان تَذكّروا فإذا هم مُبصرون. وإخوانهم يَمدّونهم في الغَي ثُم لا يُقصِرون. وإذا لم تَأتِهم بآية قالوا لولا اجْتبيْتَها قُل إنّما أَتبع ما

يوحى إليّ مِن رَبّي هذا بصائرُ مِن ربّكُم وهدى ورحمة لِقوم يؤمنون. وإذا قُرىء القرآن فاستَمِعوا له وأنصِتوا لعلكم ترحمون) «سورة الأعراف ٢٠٠ ـ ٢٠٤».

فهذه الصيغ الشرطية المتوالية إنما تورث توقيعاً في الأذن وتوحي بحال مِن الطمأنينة تمازج الصيغة الشرطية وتلابسها، وتؤكد المعنى الذي يتضمّنه نصُّ الآيات.

ويجتمع الشرط والعطف في مثل قوله عز وجل:

(يأيها الذين آمنوا إن تتّقوا اللهَ يَجعَل لَكُم فُرقاناً ويكفِّر عنكم سيئاتِكم ويغفِر لكم واللهُ ذو الفَضلِ العظيم) «سورة الأنفال ٢٩» وكذا قوله سبحانه: (قُل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانُكم وأزواجُكم وعَشيرتُكم وأموالٌ اقتَرفْتموها وتِجارة تخشَون كسادَها ومساكنُ ترضَونها أحبَّ إليكم مِن اللّه ورسولِه وجهادٍ في سبيله فتربصوا حتى يأتي اللهُ بأمرِه واالله لا يَهدي القومَ الفاسِقين) «سورة التوبة ٢٤».

ويَتحقّق بهذين الأسلوبين كثيرٌ مِن حُسن التوقيع ومُختلف النغَم مع توافر عِدة ألوان مِن صِيغ الكلِم التي تَزيد في ذلك ارتياحاً في السماع وحالة في النفس يوحي بها المَعنى والمضمون.

اختيار اللهجة وآثارها

فقد قطع الأوائل بأنّ الله تعالى أنزل القرآن الكريم بأفصح لغات العرب وأعربها وأبينها لقوله عز وجل: (إنّا جعلناهُ قرآناً عربيّاً لعلكم تعقلون) «سورة الزخرف٣»،ولقوله‌تعالى: (ولو جَعلناهُ قرآناً أعجميا لقالوا لولا فُصِّلت آيـاتـه أأعجمي وعربي قُـل هُو لِلـذين آمنوا هُـدى وشفـاء) «سورة فُصِّلت٤٤».

فماذا بعد ظُهور ذلك وتأكُّده. فهل وراء النص المثبت احتمال لوجوه أخَر؟

فقد روى أبو عبيد[١] بسَنده عن زيد بن ثابت أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «نزل القرآن بالتفخيم».

وهذا يعني أن النص القرآني يحتمِل في اللفظ والنُطق وجوها. ومعنى الحديث يوضِّحه ما ذكره أحدُ رواته إذ سمع مَنْ يروي عنه مثلاً على التَفخيم وهو قوله تعالى: (عذُراً أو نذُراً) «سورة المرسلات ٦» وهو في قراءة حفص بتسكين الذال. وبعض القدماء يُسمون هذا تثقيلاً، لأن الحركة ثِقل في نحو هذين اللفظين، وذلك لتوالي الحركات، ولأن السكون خِفة.

وكان طائفة من الصحابة قبل أن يجمع الإمام عثمان رضي الله تعالى عنه الناس على مصحف يختارون القراءة على اللهجة التي تَروقهم. فقدْ روى ابن الأنباري بسنده عن كعب بن مالك قال[٢] «سمع عمر رجلا يقرأ

---

١ ـ انظر فضائل القرآن ١٠٠/أ

٢ ـ انظر إيضاح الوقف والابتداء ١١٣

هذا الحرف (ليسجُنُنّه عتّى حين) قال: فقال له عمر: مَن أقرأك هذا؟ قال: ابن مسعود. فقال عمر: ليَسجُنُنّه حتى حين) قال: ثم كتب إلى ابن مسعود: سلامٌ عليك، أما بعد، فإن أنزل القرآن فجعله قرآناً عربياً مبيناً، وأنزله بلغة هذا الحي من قريش، فإذا أتاك كتابي هذا فأقرىء الناس بلغة قريش ولا تُقرئهم بلغة هُذَيل».

وهذا الصنف مِن اللهجات التي كان النص القرآني يقرأ بها، تَتبعَّها أهل اللغة، أصحاب القراءات وعلماؤها. وذكروا ما تنزَّه عنه نص القرآن، وشَذّذوا منها ما خالف رسم المصحف والروايات المسندة، وسدّوا الطريق إليها بأن القراءة سُنّة كما رُوي عن نافع، وأن القرآن يُختار له ولا يُختار عليه.

وفيما روى الطبري عن ابن شهاب اختلاف المكلفين بجَمْع المصحف في كتابة لَفْظِ (التابوت) فقال زيد بن ثابت: (التابوه) وخالفه ابنُ الزبير وسَعيدٌ وعبدالرحمن وقالوا إنه بالتاء ثم رفعوه الى عثمان رضي الله تعالى عنه فقال عثمان: اكتبوه (التابوت) فإنه لسان قريش[١].

وبعد أن ثبت النص القرآني على ما أَمر به عثمان بن عفان بمَشورة أصحابه وقيام النَفَر الذين ندبهم لذلك العمل. وكتبوا تلك المصاحف التي بعثَ بها إلى الأمصار، ولزِم المسلمين أن يقرأوا ما فيها دون غيرها - بعد هذا وما تبِعه مِن أمور تتّصل بالقراءة وقيودها في الاختيار، فقد جعل كل مَن ملك السَنَد، وكانت له مُنّة في العربية أن يقرأ نص القرآن بحسب ذلك، وأن تكون له قراءة مُنتفِعاً بتلك الشروط الثلاثة: السَندُ ورسمُ المصحف والعربية.

فمِن ذلك اختيار حمزة لقراءة: (فانظر إلى طعامك وشرابِك لم يتسنّه) «سورة البقرة ٢٥٩» (فبِهداهُم اقتدِه) «سورة الأنعام ٩٠»

---

١ - انظر تفسير الطبري ٥٩/١ والمصاحف ١٩ والمقنع ٢١

ووافقه الكسائي على هذين. واختار حمزة أيضا قراءة (ياليتني لم أوتَ كِتابيه. ولم أدرِ ما حسابيه) «سورة الحاقة ٢٥، ٢٦» وكذا: (وما أدراك ما هيه) «سورة القارعة ١٠» ووافقهما أبو عمرو في حرف الأنعام. واختيار حمزة حذف الهاء في كلِهن إذا وصل مُستغنياً بالحركة عن الهاء التي هي هاء الوصل إنما جِيء بها للسَكت[1].

وفي إثبات هذه الهاء وحذفها عِلل ذكرها أهلُ الفن[2] «فمَن أثبتها في الوقف وحذفَها مِن الوصل قال: إنما تدخُل الهاء في السَكت لِتتبين بها الحركة التي قبلها. وذلك أنا إذا قلنا: «كتابيه وحسابيه» وجدْنا الياء مفتوحة فكرِهنا أن نقف عليها من غير هاء، فلا تتبيَّن الفتحة، فلما كانت إنما تدخُل في السَكت لتبين بها الحركة ثم زال السكتُ زالت. ومَن أثبتها في الوصل والوقف قال: أردتُ أن أبين بها الفتحة التي في آخر الحرف وبنيت الوصل على الوقف».

وهناك كلامٌ على هاء «يتسنَّه» من حيث الهاء فيها، أهي أصلية في الكلمة أو هاء السكت أو مبدلة من حرف آخر؟

ولما كان تفصيل ذلك وما أشبهه لا يتعلق بالموضوع فقد تجنَّبناه وسكتْنا عنه.

ومن ذلك قراءة قوله عزّ وجلّ: (وكأيِّن مِن نَبيّ) «سورة آل عمران ١٤٦» واختلاف القراء في نطقها والوقوف عليها. فالنون في «كأين» مِن أصل الكلمة. وعامة القراء يقفون عليها بلا نون هكذا: «وكأي» على أن النون تُشبه التنوين وهي لغة لبعض العرب.

واختار ابن كثير قراءتها: «وكاين» على وزن «فاعل» واختار ابن محيص قراءتها «وكين» على وزن «فعل» [3].

(١) انظر معاني القرآن ١/١٧٢ وتفسير الطبري ٥/٤٦٠

(٢) انظر إيضاح الوقف والابتداء ٣٠٥

(٣) - انظر شواذ القراءات ٢٢

ومنه قراءة قوله تعالى: (وإن إلياس لِن المرسلين) وقوله: (سلامٌ على ال ياسين) «سورة الصافات ١٢٣، ١٣٠» ورويت قراءة عبدالله رضي الله تعالى عنه: «وإن إدريس لَمن المرسلين ... سلام على إدراسين»[1].

ومنه ما رُوي عن ورش من إشباعه الضمة بعدها واو وإشباعه الكسرة بعدها ياء. وذلك في قوله تعالى: (إياك نعبدُ وإياك) و (ملكِ يوم الدين) سورة الفاتحة ٣، ٤».

فتكون صورة اللفظ هكذا: ملكي يومِ، نعبدو وإياك. روى ذلك بعض أهل مصر والمغرب. وقد ذكرت هذا على أنه من أمثلة اللهجات في القراءات وإن كانت شاذة منكرة.

ولا ريبَ أن اختلاف صورة اللفظ الذي يُقرأ به اختلاف في نُطقه ولَفْظه واختلافٌ في مَسموعه. وأغلب هذا الصنف مِن القراءات إنما هو اختلاف في الاختيار لصيغة دون أخرى. ففي إثبات الهاء في موضع التاء أو العكس وحذف الهاء في الوقف أو إثباتها في الحالين، واختلاف صيغة لفظ في صوت أو أكثر إنما هو تَباين في مسموع نُطق تلك الصيغ، وهو قُرب أو بعد في انسجام النص المقروء، يُورث أثره في الأذن ارتياحاً أو انقباضاً. فأَيُّهما أَولى، وصلُ حمزةَ لِما فيه هاء السَكْت بإسقاطها اكتفاء بالحَركة أو وصلُ غيرِه مِن القراء السَبعة ومَنْ وافقَهم لِمثل ذلك مِن الصيغ باثبات الهاء؟

وأي اختيار أَولى وأَوقع في السمع لصيغة «وكاين» قراءة ابن كثير، وهي على وزن فاعل بغيرهمزه، أو قراءة العامة. وهي بهمزة دون نون وقفاً وبتنوين وصلاً، أو قراءة ابن مُحَيص وهي بلا همزة ولا ألف؟ كل ذلك راجع إلى اختلاف في شروط الاختيار ومذاق السماع.

غير أن هذا الصنف مِن القراءات يكاد يكون مقتصراً على قليل مما

(١) - انظر شواذ القراءات ١٢٨ ومجالس ثعلب ٩

يقبلُه القراء وأهل الفن. ولعلهم يذكرونه استئناساً. وأما اللون الآخر، وهو ما كان شغل أهل القراءات وأصحاب الاختيار مِن القراء والنحويين واللغويين، فذلك ما يُعوَّل عليه في هذا الجانب من حيث اختلاف الصيغ تشكيلا وحركات، وهو غاية تباين النُطق واللفظ، وظهور الصوت بالكلام سواء كان ذلك في سياق العبارة أو في نهايتها أو في مواضع مِن نهايتها، وهو موضوع البحث التالي.

ألوان من القراءات المختارة وآثارها

لا يكاد يُستثنى من القراءات القرآنية على هَدي ما يطلب فيها من خصائص الموسيقى إلا أشياء قليلة. وذلك لرجوعها في أغلبها إلى أصناف اللغة مِن حيث النطق واللفظ، وهي الصوت والصيغة بنوعيها: اللفظ والتراكيب.

فمِن ذلك حركة الهاء الضمير التي دخلت عليها بعْض أحرف الجر والظَروف، هل تبقى على ما كانت عليه حركتها وهي الضم أو تغير بتأثير ما دخل عليها؟ فلننظر في أمثلة لهذه الهاء، ووجوه اختيار القراء لها. فأمثلتُها هي: عليهم، إليهم، لديهم، حيث وردت في النص القرآني. والقراء في قراءتهم لهذه الهاء والميم فُرقاء. فحمزة على ضمِّها في هذه الثلاثةوتابعه يعقوبُ على ضمها في كل موضوع إذا كان قبلها ياء ساكنة. وبقيةُ القُراءِ على كسرها.

ولكل فريق في اختياره حجته. فأما حمزة وكذا يعقوب فضمُّها الهاء لأنه الأصل، ولأن بعدها ميماً مضمومة أصلاً وانْ أُسكنت استخفافا. ولم ينظرا إلى الياء قبل الهاء، لأنها عارضة وأصلها ألف. وأما أبو عمرو فقد كسر الميم أيضاً إذا لقِيت ساكنا، وذلك على أصل حركة التقاء الساكنين، فأتبع بذلك الكسرَ الكسر. وأما حجة الآخرين مِن القراء في كسر الهاء وإسكان الميم إذا لم يأت بعدها ساكن، فلأن قبل الهاء ياء، ولأن ما بعد الميم متحركا (١) ولهذا فإن المسموع من قراءة كل فريق يختلف عن غيره. فهو مرة علة ساكن متبوع بضمتين ممطولتين، ومرة حرف علة ساكن متبوع

١ ـ انظر الحجة في علل القراءات ٤٢/١ والنشر ٢٧١/١

بكسرتين ممطولتين، ومرة ثالثة حرف علة ساكن بكسرة بعد حرف في نطقه شيء من النَفْخ مُنْتهٍ بحرف مَغْنون ساكن.

ومثلُ ذلك هذه الهاء إذا كانت آخِراً، ودخَل عليها حرف جرٍ أو اتصل بها فعلٌ أو اسمٌ. فالقراء في حركة هذه الهاء ثلاثة فُرقاء. فريق منهم وصلَ الهاء بياء إشباعا للكسرة إذا سبقت بياء، ووصلها بواو إشباعاً للضمة إذا كان قبلها ساكن غير الياء، وهذا الفريق هو ابن كثيرٍ الدَاري قارىء مكة شرّفَها اللهُ تعالى، وفيما ذكر أبو علي الفارسي مِن اختلاف الرواية في إثبات الياء عن نافع وعاصم. وحجةُ ابن كثير في الحالين تقوية الهاء. ولو لم يكن في الكلام واو ساكنة قبلَها كسرةٌ كان هذا الإبدال.

وأما مَطْلُ ضمتِها في غير ذلك فعلى أصل حركتها وتقوية لها، لأنها خفية.

وفريق وصلَ الهاء بياء إذا كان قبلها كسرة ووصلها بواو إذا كان قبلها ضمة أو فتحة، وحجته تقوية الهاء، وأنه أَتى بها على الأصل. وأكّد ذلك أنّ قبل الهاء متحركا، وفيه تقوية لها[1].

وفريق ثالث حذف الياء، فلم يصِل بها، لأن ذلك اجتماع لثلاثة أصوات خفية: الياء التي قبل الهاء وهي ساكنة والياء التي بعدها وهي أيضاً ساكنة، ولأنها غير ثابتة في الرسم، وهذا إجماع القراء[2].

وكلا الاختيارين يُحقّق لوناً مِن المسموع مختلفاً وإن كان في الواو والياء اللتين نشأتا عن إشباع الضّمه والكسرة عذوبة في السَمْع. وهذا ظاهر في تلاوة قوله تعالى: (اهدِنا الصراطَ المُستقيم. صراطَ الذين أنعمتَ عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) سورة الفاتحة ٦ - ٧ » وقوله عزّ وجلّ مِن قائل: (واضرِبْ لَهُم مثَلاً أصحابَ القريةِ إذ جاءها المُرسَلون. إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذّبوهما فعزَزْنا بثالثٍ فقالوا إنا إليكم مُرسَلـون)«

١ - انظر التبصرة ١٤/أ والحجة في علل القراءات ١٣٠/١
٢ - انظر الحجة في علل القراءات ١٣٣/١

سورة يس ١٣ - ١٤ » وقوله سُبحانه: (ذلك مِن أنباء الغَيبِ نوحيه إليكَ وما كُنْتَ لدَيْهم إذ يُلقون أقلامَهُم أيُّهمْ يَكفُل مريمَ وما كنتَ لديهم إذ يختصِمون) « سورة آل عمران ٤٤ ».

ويختلف الاختيار للصيغة وذلك نحو قوله تعالى: (يُخادِعون اللهَ والذين آمنوا وما يَخْدَعون إلا أنفسَهم وما يَشعرون) « سورة البقرة ٩ ».

فلفظُ القراءة « يُخادعون » فيه صيغتان إحداهما هذه، والأخرى هي: « يَخدعون » واختار هذه الكوفيون وابنُ عامر وآخرون كأبي جَعفر والحسنِ وقَتادة وأبي عبدالرحمن السُلَمي. وحجتهم مِن اللغة والتفسير ونصّ القرآن، ذلك لأن، فاعَل وفعَل « بمعنى واحد، وأن الخِداع لم يكن مِن اثنين كما توحي صيغة « فاعَلَ ». وفي ذلك تَنزيهٌ لِلرسول الكريم عليه السلام عن إتيان فِعل الخداع، وأنّ الخداع لم يكن إلا مِن المنافقين كما في قوله تعالى: (وإن يُريدوا أن يَخْدعوك) « سورة الأنفال ٦٢ ».

واختار الآخرون مِن السبعة ومعَهم الأعرجُ وابنُ جُنْدُب وشَيبةُ ومُجاهد صِيغة المفاعلة على استواء الصيغتين، وحملوا اللفظ الثاني على الأول.

والمسموع مِن نُطق اللفظين مختلفين يُوحي بفَرْق بين الصيغة الأولى التي ليس فيها ألف، ويوحي بشيء مِن المعنى، والمَسموع منهما متفقين يوحي بِرَتابة ويوحي بتأكيد المعنى وعودته على أنفُس المخادعين وحدَهم[1].

وقريب مِن هذا قوله تعالى: (في قلوبهم مرض فَزادَهُم اللهُ مَرضاً وَلَهُم عذابٌ أليم بما كانوا يكذبون) « سورة البقرة ١٠ » ولهُ نظائر في القرآن كثيرة. وقد قُرىء بوجهين: أحدهما على وزن « يفعلون. وهو مِن « كذب » واختارها الكوفيون ومعَهم الحسنُ وقتادةُ وأبو عبدالرحمن السلمي وغيرُهم محتجين بأن ذلك موافق لما قبله في قوله عز وجل: (وإذا لقُوا الذين آمنُوا

١ - انظر المختار في قراءات أهل الأمصار ٢/ ب وزاد المسير ٢٩/١ وتفسير ابن كثير ٤٨/١

قالوا آمنّا وإذا خَلوا إلى شياطينهم قالوا إنما نحنُ مُستهزئون) «سورة البقرة ١٤».

وثانيها على وَزن «يُفَعِّلون» وهو مِن «كَذّب» واختارها البقية مِن السبعة ومَعهم الأعرج وأبو جعفر وشُيبة ومجاهد وغيرهم. وحجتهم ما يَقتضيه معنى الآية المتقدمة. ذلك أن المرض شكٌّ، ومَن كان هكذا شأنه كذّب وجَحد. ولِلفرْق بين الصيغتين في الدلالة، ومقتضى المقام إحدى الصيغتين أكثر مِن الأخرى. واللفظُ فاصلة، واختلاف الصيغة فيها يُوحي بالفرق الذي يُلمح بوجهيه[1].

ومثلُه قوله عزّ وجلّ: (وحاجَّهُ قومُه قال أتحاجُّوني في اللّهِ وقد هدانِ ولا أخافُ ما تُشرِكون بهِ إلاّ أن يَشاء رَبّي شيئاً وسع ربي كُلَّ شيء علما أفلا تتذكرون) «سورة الأنعام ٨٠».

ففي «أتحاجوني» قراءتان: إحداها بتخفيف النون. وهي اختيار ابن عامر من السبعة، وحجته في حذف النون اجتماع المثلين المتحركين والتضعيف في الجيم، ورغبة في الاستخفاف.

ولأهل العربية كلام ومآخذ على حذفِه النون. وثانيتها بالتشديد، وهي اختيار بقية السَبعة لأنه الأصل، ولالتقاء المثلين أُدغم أحدهما في الآخر، وزيد في مَدِّ الواو اتقاء التقاء الساكنين: الواو وأُولى النونين. وفي هذا الوجه تَرنُّم أكثر مِن الوجه الأول ولا سيما توالي ثلاثة أصوات مد هي: الألف قبل الجيم المشددة وهي أطول صوتا مِن كل ألف أخرى للتشديد، والواو والياء، وهذا غاية إطالة المد بالصوت [2].

وفي قوله تعالى: (قُل هَل مِن شركائِكم مَن يَهدي إلى الحَقّ قُل اللهُ يَهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحَقُّ أن يُتّبع أمّن لاّ يَهدّي إلا أن يُهدَى

١ - انظر التبصرة ٤٩/أ و الحجة في علل القراءات ٢٤٦/١

٢ - انظر التيسير ١٠٤ وزاد المسير ٧٦/٣ وكتاب سيبويه ١٧٩/٢

فما لكم كيفَ تَحكمون) «سورة يونس ٣٥» أربعة اختيارات: أولُها فتح الياء والهاء وتشديد الدال، وهو لابن كثير وابن عامر وورش، ووافقهم أبو عمرو وقالون لكنهما خفّفا فتحةَ الهاء. وثانيهما: فتحُ الياء وكسر الهاء وتخفيف الدال وهو لحمزة والكسائي. وثالثهما: فتح الياء وكسر الهاء والتشديد وهو لحفص. والرابع: كسر الياء والهاء وهو لأبي بكر.

وحجة التشديد ادغام التاء في الدال، لأنّ أَصل الفعل من: اهتدى يهتدي. وحجة التخفيف أنه من: هدى يهدي. وحجة مَنْ كسرَ الهاء التقاء الساكنين لأنها كالمُنفصلة إذ لم يلق حركة التاء المدغمة في الدال عليها. وحُجة من كسر الياء إتباع الحركة الحركة. وحجة مَن خفّف حركة الهاء إلقاء حركة التاء المُدغمة في الدال عليها، ولغرض تَبيين أن هذه الحركة عارضة[1]

وفي ذكر هذا الفعل باختلاف مسموع ألفاظه، وورودُه خمس مرات في الآية يؤكد صيغة مِن اللفظ يُملح في الأذن، لكن في لفظ الفعل المختلف فيه نهاية الحُسْن ولا سيما إذا كان القارىء يجمع بين أكثر مِن قراءة لهذا اللفظ في تلاوته، وقد اجتَمَع له صَوْتا عِلة هُما اليـاءان إحداهما بأول اللفظ والأُخرى بآخره وبينهما هاء التي يَصحب نطقَها نفخٌ وتنفُس يملأُ الصَدْر، ويصحَب ذلك أكثر أصوات الحركات والصوت المشدّد وهو الدال يترُك أثراً مغايِراً بين كل هذه الأصوات.

وهذا الصنف مِن القراءات يرجع في اختياره إلى السند، والتزام القارىء به على ما تلقاها عن شَيخه. فقد روى ابن الأنباري بسنده أن أبا الفتح النحوي [2] «قال: سمعت يعقوب الحَضْرمي يشير إلى الحركات إذا وقف. وذكر أيضا أنّ العباس «أحمد بن يحيى يختار الإسكان في كلِّ القرآن للحديث الذي جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم، مِن الوقف على

١ - انظر معاني القرآن ٤٦٤/١ وتفسير الطبري ٨٧/١٥ وزاد المسير ٣٠/٤

٢ - انظر ايضاح الوقف والابتداء ٣٨٧ وسنن الترمذي ١٢٣/٨، ١٢٦

كل آية ».

فمِن ذلك جواب أبي محمد مكي بن أبي طالب عن علة اختياره للتَسمية بين السورتين قال:[١] «الجواب أن الذي أختاره لنفسي أن أفصِل بين كل سورتين بالتَسمية اتباعاً لخَطّ المصحف،ولقول عائشة: اقرأوا ما في المصحف «ولإجماع أهل الحرمين وعاصم على ذلك، فإجماعهم على القراءة حُجةٌ أَعتمِد عليها في أكثر هذا الكتاب، وليتبين بذلك أن السورة الأُولى قد تمّت وأن الثانية مبتدأ بها، ولقول أُبَيّ: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمُرنا في أول كل سورة بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» وللتَبرُّك بالابتداء بِذكْر أسماء الله وصفاته».

وعلى أنّ في آية البَسْملة وجهات نظر ترجع إلى أخبار وآثار استوفاها بعض العلماء ولا سيما الكَوْثري رحمهُ اللهُ تعالى في كتابه «نَصبُ الراية».

ولا اختيار في قراءة هذه الآية لأنها طُرّة كلٍّ سورة في رَسْم المصحف. ولعل في تِلاوة القراء لها نسقاً مِن النغَم أشبه باللاّزِمَة بين السورة والسورة.

---

١ - انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢١/١

اختيار صوت دون آخر

وتختلف القراءات لصوت حرف في صيغة مِن الصيغ كما في قوله تعالى: (اهدِنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمتَ عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) «سورة الفاتحة ٦ - ٧» ففيه ثلاث قراءات: هي بالسين في «السراط»، كذلك قرأ قُنْبلٌ عن ابن كثير، لأنها الأصل ولكن أُبدِلت صادا للطاء. وبالصاد، كذلك قرأ أغلبُ القراء، وهي أوفق لصوت الطاء المستعلي لمؤاخاتها لها فيه. وبصوتٍ بينَ الصاد والزاي، كذلك قرأ خلَفٌ عن حمزة، أشمَّ الصاد لفظ الزاي، وهذا مجهور، فوافق بذلك الطاء. وروى الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء قراءة الزاي، ورد أبو علي الفارسي ذلك وكرِه هذه اللُغة. وإذا قرىء ذلك بثلاثة أصوات: السين والصاد والزاي، وكلٌ قراءة تختلف في السَمع عن الأخرى، فالصاد والزاي، وكلٌ قراءة تختلف في السمع عن الأخرى، فالصاد المختارة لرسم المصحف وإجماع القراء.

ومن ذلك صوت الراء تفخيما وترقيقا في صيغ معينة نحو قوله عز وجل: (وإذ قُلنا ادْخُلوا هذه القريةَ فَكُلوا مِنها حيثُ شِئْتم رغَداً وادْخُلوا البابَ سُجّداً وقُولوا حِطّة نغفِر لَكم خطاياكُم وسنزيد المُحسنين) «سورة البقرة ٥٨» وقوله تعالى: (ولقد آتَيْنا موسى الكتابَ وقفّينْا من بعده بالرُسل وآتينا عيسى ابن مريمَ البَيّنات وأيّدْناه برُوح القُدس أفكُلّما جاءكُم رسولٌ بما لا تَهوى أنفسُكم استكبَرتُم ففَريقاً كذّبْتُم وفريقاً تَقتلون) «سورة البقرة ٨٧» وقوله تعالى: (أفَمن كان على بيِّنة مِن رَبِّه ويَتلوه شاهدٌ مِنه ومِن قَبْله كتابُ موسى إماماً ورحمةً أُولئك يُؤمنون به ومَن يكفُر بِه مِن الأحزاب فالنارُ موعدُه فلا تَكُ في مِرية مِنْه إنّه الحق مِن رَبِّك ولكنَّ أكثَرَ

الناس لا يُؤمنون) «سورة هود ١٧» وقوله تبارك وتعالى (وأَنذِرْهم يومَ الحَسْرة إذ قُضِي الأمرُ وهُم في غَفْلةٍ وهُم لا يُؤمنون) «سورة مريم ٣٩» ومثل ذلك مِن هذا الصوت في القرآن. فإذا كان متحركاً بالسُكون قبلَه كسرٌ أو بعدَه ياءٌ فحُكمهُ في النُطق الترقيق إلا إذا أتى بعدَه صوتٌ مِن حروف الاستعلاء فيَغلب عليهم التَفخيم.

وأما إذا كان صوتُ الراء مفتوحاً أو مَضموماً فكل القراء على تفخيمه إلا ما كان مِنه مُمالاً[١].

ومنه تَغليب صيغة على أُخرى بسبب صوت نحو قوله عز وجل في قصة آدم: (فأَزَلَّهُمَا الشيطانُ عنها فأخرجَهما مِما كانا فيه وقُلنا اهبِطوا بعضُكم لبَعض عدوٌ ولكُم في الأرضِ مستقر ومتاعٌ إلى حين) «سورة البقرة ٣٦».

فقرأ حمزة وكذا الحسَن والأعرج وطلحة «فأزالهما» بألف مُخفَّفة يريد أنه مِن الزوال والتَنحية، ومخالفة معنى ما قبله، إذ أمر الله سبحانه آدم وحواء بسكنى الجنة والسكنى ثباتٌ حتى سعى إبليس اللعين فأزالهما عَن مسكنهما.

وقرأ الآخرون مِن السبعة، وطائفة مثل قتادة ومجاهد وشيبة على التضعيف من الزَلل، أي: «فأزلهما»، إذ وسوس لهما الشيطان بذلك فأدخلهما في الزلل، فتسبَّب في زوالهما عن الجنة، وفي كل قراءة معنى الأخرى[٢].

ومنه قوله عز وجل: (وإذ قال موسى لِقَومه يا قومِ إنكم ظَلَمْتُم انفسَكُم باتّخاذِكُم العِجْلَ فَتُوبوا إلى بارئِكُم فاقتُلوا أنفسَكم ذلكُم خيرٌ لكُم عند بارئِكم فتابَ عليكُم إنّه هو التَواب الرحيم) «سورة البَقرة ٥٤» وقوله

١ ـ انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢٠٩/١

تعالى: (وإذ قال موسى لِقومه إنّ اللهَ يأمُركم أن تَذبَحوا بقرةً قالوا أتَتخذُنا هزُواً قال أعوذ باللهِ أن أكون مِن الجاهلين) «سورة البقرة ٦٧».

وقوله تعالى: (إن يَنصُرْكُم اللهُ فلا غالِبَ لكُم وإن يخذلْكُم فمَن ذا الذي ينصرُكم مِن بعدِه وعلى اللهِ فليتوكّل المؤمنون) «سورة آل عمران ١٦٠» وقوله سبحانه: (وأقسَموا بالله جَهدَ أيمانِهم لئِن جاءتْهُم آيةٌ لَيُؤمِنُنّ بها قل إنّما الآيات عندَ اللهِ وما يُشعرُكم أنّها إذا جاءت لا يؤمنون). «سورة الأنعام ١٠٩».

فالراء في الألفاظ: بارئكم، يأمركم، ينصركم، ويشعركم، وكذا الهمزة في: بارئكم، وشِبهه. فإن الرواية عن أبي عمرو بن العلا مِن طريق الرَّقيين بإسكان الراء والهمزة. وفي رواية العراقيين باختلاس الحركة. وكذلك قرأ ابنُ كثير وابنُ عامر في بعض المواضع بإسكان الراء، وقراءة الآخرين بتمام الحركة. والإسكان والاختلاس في نحو هذا استخفاف لِتوالي الحركات وإن كان أولُها أحسنَ مِن الثاني، لأنه لم يُغير شيئاً في صيغة الكلمة إلا التوسط في أمر الحركات المتوالية.

ومِن ذلك حركة حرف الدال في لفظ «القدس» مِن قوله عز وجل: (ولقَد آتَيْنا مُوسى الكتابَ وقفَّيْنا مِن بعدِه بالرُسُل وآتَيْنا عيسى ابنَ مريمَ البَيِّنات وأيّدْناه برُوح القُدس أفكُلّما جاءكُم رسول بما لا تَهوى أنفسُكم استكبَرْتُم ففريقاً كذّبتُم وفَريقا تَقتلون) «سورة البقرة ٨٧» وما له مِن نظائر في نَص القرآن، قرأ ابنُ كثير بإسكان الدال استخفافاً لتوالي الحركات، وقرأ الباقون ومعَهم الحسن ومُجاهد وابنُ أبي إسحاق وغيرهم بضَمّها[1].

وتختلف الصيغة في أكثر مِن موضع نحو قوله عز وجل: (ما نَنْسَخ مِن

---

١ - انظر زاد المسير ١/١١٢ والمختار في معاني قراءات أهل الأمصار ٨/ب والنشر ٢/٢٠٨

آية أو نُنْسِها نأتِ بخير منها أو مِثلها ألم تَعلم أنّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قدير)
«سورة البقرة ١٠٦»

فلفظُ الفعل «نُنْسِها» قُرىء على وجهين: أحدهما من «نسأ» وهي قراءة أبي عمرو وابن كثير ورُوي مِن قراءة عمر وابن عباس وعطاء بن يَسار وغيرهم، على معنى التأخير. وثانيهما من «نسي» وهي قراءة الباقين، ورُويت مِن قراءة ابن المُسَيِّب وأبي عبدالرحمن وقتادة وغيرهم.

فهذه ألوان من اختلاف الصيغة ترجع مرة إلى أحد أصواتها ومرة إلى شَكْلها ومرة إلى أصوات الحركات ومرة إلى تَناسب فيها. وهذا كلُّه يؤدي إلى اختلاف في المسموع، ويغير في توالي أصوات العبارة في سياق الكلام ونطقه ويتباين في ذوق المستمع ومزاجه.

فهل كان هذا الاختلاف بَمعزل عن العلل الأخرى في تباين القراءات أو أنه متصل بها مُنطوٍ عليها؟ والحق أن علة الاختلاف هي هذا كله إلا أن يكون جانب منها يغلِب على الجوانب الأخرى. وأحسَب أن للعربية ووجوهِهاَ آثاراً في هذا الاختلاف، ترجح أحيانا حتى يُخيّل أنّ العلة كلها فيها، وهو ما غلب على الوجوه التي مرّت في هذا البحث، ولعلها ترجع إلى المعنى وآثاره كما سيأتي في البحث الآتي.

آثار المعنى في جوانب من الصيغة والتلاوة

ولأهل اللغة والنحو والمعاني كلامٌ كثير على هذا الجانب مِن الموضوع. فهل المعنى هو المُقدَّم على الصيغة أو ما كان يُسميه المُتقدمون اللفظ، أو اللفظ هو المُقدم على المعنى؟

وإذا كان الموضوع قد اتّخذ مسارب واتجاهات مضى فيها أصحابُ كلِّ رَأي وانتهى ما بين منتصر للمعنى، لأنه الأشرف ومنتصر للفظ لأنه وِعاءُ المعنى، فالأمر ههنا مختلف، لأن القرآن الكريم ليس مِن كلام البشر وإنما هو كلامُ رب البشر، ولأنه مُعجز بإجماع أغلب من تناولوا الموضوع فإن الكلام على هذا الجانب، أي المعنى وآثاره في الصيغة إنما سيكون مِن قبل وجوه المعاني والتفسير التي خلص إليها أصحاب الاختيار وأهل المعاني والنحو واللغة الذين يرجع إليهم في مناقشة تلك الوجوه.

فالقراءة في قوله تعالى: (فتلقى آدم من ربه كلمات) «سورة البقرة ٣٧» وجهان: أحدهما نصب «آدم» ورفع «كلمات» وهي قراءة ابن كثير وابن عباس ومجاهد. وثانيهما رفع «آدم» ونصب «كلمات» وهي قراءة غير ابن كثير مِن السبعة ومعَهم الحسَن والأعرج وشيبة وعيسى بن عمر والأعمش.

وكلُ فريق اختار قراءة على صيغة تُخالف الصيغة الأخرى للمعنى الذي وقف عليه والتفسير الذي ارتضاه. فالمعنى في القراءة الأولى أن الكلمات هي التي أدركت آدم ونَجّتْهُ مِن معصيته ومآلها، وقد وفّقه الله تعالى لقولها ويَسّر لهُ بها التوبة[1] والمعنى في القراءة الثانية أن آدم تَلقّى

---

١ ـ انظر التيسير ٧٣ والحجة في القراءات السبع ٥٠ وتفسير ابن كثير ٨٢/١

الكلمات وقبلَها ودَعا بها، فتاب الله تعالى عليه.

ومثل ذلك اختلافُ المعنى في قوله عزّ وجلّ: (وإذ واعَدْنا مُوسى أربعين ليلة......) «سورة البقرة ٥١» وكذلك نظيرُ هذا في قوله سبحانه: (وواعدْنا موسى ثلاثين ليلة....) «سورة الأعراف ١٤٢» وقوله تعالى: (يا بَني إسرائيلَ قد أنجيْناكم مِن عَدوِّكُم وواعدْناكم جانبَ الطُور الأيمن....) «سورة طه ٨٠»

ففي هذا جميعه قراءتان أُولاهما لأبي عَمْرو في الثلاثة بغير ألف «وَعَدْنا» ومعَه على هذه القراءة الحسن وأبو جعفر وأبو رجاء وابن أبي إسحاق وشيبة وعيسى بن عمر وقتادة، وذلك لأن المعنى فيها على الوَعْد مِن الله تعالى لِموسى عليه السلام. ولذلك حُجة مِن نص الكتاب العزيز، ويدُل عليه ظاهر اللفظ، فهي على وزن «فعل».

والآخرون مِن السبعة على القراءة الأخرى وهي على وزن «فاعَلَ» لأن المعنى على أن المُواعدة مِن الله عز وجلّ ومِن موسى، والأصل في المواعدة مِن اثنين، ويجوز أن تكون على هذا الوزن وهي مِن واحد كما جاء ذلك في كلام العرب نحو: عاقبت اللص، وداويت المريض. ويكون بمعنى «فعل» وهو أحدُ مَعنَييه.[1]

وفي قوله عَزّ وجل: (وجدتُها وقومَها يَسجدون لِلشمس مِن دون اللّه وزيَّن لهم الشيطانُ أعمالهم فصدَّهم عن السَبيل فهُم لا يَهتدون. ألا يسجدوا لِله الذي يُخرِجُ الخَبءَ في السماوات والأرض ويَعلم ما تُخفون وما تُعلنون) «سورة النمل ٢٤ - ٢٥» وجهان مِن القراءة: التشديد في «ألا» وهي لنافع وعاصم وأبي عمرو وحمزة، واختارها أبو عبيد القاسم بن سلام، لأنها في بعض التفسير: وزيَّن لهم الشيطان ألا يَسجدوا، وهي قراءة يتصل فيها الخبرُ بالخبر. والتخفيف فيها، وهي للآخرين مِن السبعة معهم أبو عبد الرحمن السلمي والحسَن، وأبو جعفر وحميد، وهي على معنى: ألا يا

١ ـ انظر التبصرة ٥٠/ب وزاد المسير ١/٧٩ والمختار في معاني قراءات أهل الأمصار ٦/ب والكشف في نكت المعاني والاعراب ٥٠/ت.

اسجدوا، مثل قول العرب: ألا يا ارحمونا، ألا يا تَصدقوا علينا[1].

والصيغة على القراءة الأولى، وهي التشديد تقتضي اتصال الفاصلة في الآية السابقة بالآية التي تليها وتبدأ بـ «ألا» والصيغة الثانية أي المُخفّفة تقتضي السكت على «ألا يا» ثم الائتناف بِفعل «اسجدوا». والفرق واضح بين التشديد والتخفيف في الصيغة لفظاً وتركيباً.

وقولُه عز وجل: (ثم أَنتُم هؤلاء تَقتلون أنفسَكم وتُخرِجون فريقاً مِنكُم مِن ديارِهم تَظاهرون عليهِم بالإثم والعُدوان وإن يَأتوكم أسارى تُفادوهم وهو مُحرَّم عليكم إخراجهم أفتؤمنون بِبعض الكتابِ وتكفرون ببعضٍ فما جَزاءُ مَن يفعل ذلك منكم إلا خِزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يُردّون إلى أَشدّ العذاب وما اللهُ بغافِل عمّا تَعملون) «سورة البقرة ٨٥» فيه ثلاثة مواضع اختلفَ فيها القُراء مِن حيث الصيغة أولها: «تَظاهرون» وله نظائرُ في عدة سور منها النِساء والأنعام والفُرقان والأحزاب[2].

قرأه الكوفيون بالتخفيف إذ استثقلوا اجتماع تاءين فحذفوا إحدى التاءين وهي الثانية، لأنها الحرف الزائد، وقرأه الباقون مِن السبعة بالتشديد إذ كرِهوا الحَذف، فأدغموا التاء الزائدة في الطاء.

وثانيها «أَسارى» قرأه على هذا الوزن أي «فعالى» غير حَمزة، وعلى كسالى لِدلالة لفظ الأسير بما آل إليه مِن الحَبْس عن الحركة في الدلالة على ما يدُل عليه لفظُ كسلان، فلهذا الاشتباه في المعنى حملا على الصيغة مِن الجَمْع.

وقرأه حمزة «أسرى» على وزن «فَعلى» وهي قراءة الحسن وابن وثّاب وابن أبي اسحاق وطَلحة وعيسى والأعشى وإبراهيم النَخعي. وذلك مثل: جَريح وجَرحى وقتيل وقَتلى.

---

١ ـ انظر معاني القرآن ٢/٤٩٠ وايضاح الوقف والابتداء ١٦٩

٢ ـ وهي الآيات ١٠،٢٥،١٥٢،١

وثالثها: «تفادوهم» على وزن المُشاركة، وقرأه كذلك نافع وعاصم والكسائي من السبعة، وقرأه الباقون«تفدوهم»على وقوع الفعل من واحد، وهي قراءة مجاهد وابن محيص والأعرج وشبل وأبو عبدالرحمن السلمي.

فالقراءة الأولى على وقوع فِعل المُفاداة مِن الفريقين، لأن عند كل فريق أسرى يرغب في المبادلة بهم، فلا بُدّ مِن أن يَكون الفِعل منهما جميعاً.

والقراءة الثانية على وقوع الفعل مِن الفريق الذي له أُسرى، يُريد أن يَفديهم بما يسأل من عَرَض، وذلك شأنُ الفريق المغلوب [٢].

وهذه المواضِع الثلاثة في الآية الواحدة تؤدي في التلاوة إلى اختلاف المسموع في اللفظ موضع الشاهد وفي السياق جميعاً.

ومِن ذلك أيضا قوله تعالى: (وإذ أخذَ اللهُ مِيثاق النَبيين لَما آتيتُكم مِن كتابٍ وحِكمة ثم جاءكم رسولٌ مُصدّق لِما معَكُم لتؤمِنن بهِ ولتَنصرُنّه قال أأقررْتُم وأخذْتُم على ذلكم إصري قالوا أقررْنا قال فاشْهدوا وأنا معَكم مِن الشاهدين) «سورة آل عمران ٨١» ففيه موضعان: أحدُهما «لما» فقد قرأه غير حمزة مِن السبعة بفتح اللام على معنى أنها لام الابتداء واقعة في جواب القسَم وقرأه حمزة بكسر اللامِ على أنها حرف جَر.

وثانيهما: «آتيتكم» قُرئَ على التوحيد بحُجة أنّ قبلَه لفظَ الجَلالة وهو مُوَحَّد، سبحانه، فناسب عودة الضمير الذي هو تاء الفاعل على لفظ الجلالة الواحد.

وهذه القراءة لغير نافع مِن السبعة.

وقرأه نافع باسناد الفعل إلى ضمير الجماعة المتكلم على معنى التنظيم والتفخيم، وله نظائر في القرآن كثيرة [١].

ولم يزل المعنى المُراد مؤدياً إلى صيغة، ولم تزل الصيغة مؤدية إلى معنى أو وجوه مِن المعنى.

---

١ - انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢٥١/١ والحجة في القراءات السبع ٦١ وتفسير النسفي ٦٠/١

(٢) انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢٥١/١ وحجة القراءات ١٦٨

فمِن ذلك أيضا قوله تعالى: (وتَمّتْ كلمتُ ربِّك صِدْقاً وعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لكلماتِه وهو السَميع العليم) «سورة الأنعام ١١٥» وله نظائر في هذه السورة وسورتي يونس وغافر [١].

فقراءة الكوفيين في هذا الموضع والمواضع الأخرى التوحيد، وقراءة الباقين في هذا الموضع على الجمع. وكذا قراءة نافع وابن عامر في موضعي سورة يونس وسورة غافر، ووافق غيرهما قراءة التوحيد فيهما.

وحجة صيغة الجمع أنه يتضمن وجوهاً كثيرة مِن الوعيد والثواب والعقاب والاخبار، والمراد بها ما لا يدخله النَسْخ.

وحجة صيغة التوحيد أنها تدُل على الجمع، ولها نظائر والمراد بها في قول أكثر المفسِرين كلمة: لا إله إلا الله، ولفظُها أخفّ في النُطق [٢].

وتمام هذا في اختلاف الصيغة مِن كل وجه يؤثر في إقامتها وتأليفها إنما جاء موافقاً لغاية ما يُطلب فيها لفظاً ودلالة [٣]. وهو في النص القرآني لا غايةَ بعدَه، ولا يُدرك أدناه مَن تحدّاهم القرآنُ الكريم إلى الإتيان بمثْله أو بأيَسر شَيْءٍ مِن مثله.

---

١ ـ وهي الآيات ٣٤، ٦٤، ٦٠

٢ ـ انظر التبصرة ٦٨/ب وزاد المسير ٣/١١٠ وتفسير النسفي ٢/٣٠

(٣)- انظر الطراز ٣/٢٢١ والبرهان الكاشف ٧٨

ظاهرة المد
في التلاوة وأثرها الموسيقي

تختلف الصيغة في النُطق بحسَب ما يتوافر لها مِن أسباب، تزيد في مسموعها أو مسموع جانب منها، ورأينا فيما تقدَّم أن للصيغة جوانب تُتيح للقارئ، أن يحقّق مستوى من اللفظ لا يؤديه آخر، وأن تلك الجوانب تبدو فِي صيغة اللفظ وبِنيته مرة، وفي صيغة التركيب مرة ثانية، وفي اختلاف الصوت أحد أُصول اللفظ، أو في مصوتات الصيغة لفظاً وتركيباً مرة ثالثة.

فهل استوفينا بهذا مما تقدّم كل جوانب الصيغة أو أن هناك جوانب أُخرى لها شأنها في موسيقى النص القرآني؟

والجواب عن هذا بنحو عام أن في النص القرآني بنَظْمه المعهود ولا سيما فواصله وألفاظه وصِيَغهِ يُنبوعاً من الموسيقى لا ينضُب. بيد أنّ هذا لا يعَني أَن فيه جوانب لها هذه الخاصةُ أكثر مِن سواها.

وأَعني بهذه الجوانب عدة ظواهر هي مَعقد اختلاف القراء من حيث العربية، ولا سيما المدّ والإمالة والإدغام والهمز والوقف.

والمدُّ أغنى تلك الظواهر بالموسيقى، لأنه امتداد اللفظ بالصوت لعلة في الصيغة، والمعني بالمدِّ ههنا غير ما يُفهَم لأول الأمر، فهو [1] «عبارة عن زيادة المد في حروف المد».

ونقيضه القَصْر، وهو: «ترك الزيادة مِن المد».

---

١ - انظر ابراز المعاني ٨٣، ٨٦

وهذه الزيادة المذكورة هي المُهمة في قيمة العبارة القرآنية موسيقياً، غير أن القراء السبعة في ذلك فريقان. فريق مدُه وسط وهم نافع وابن كثير والكسائي وابن عامر. وفريق زاد في المَدّ، ولكنهم تفاوتوا فيه وهم عاصم وحمزة [1]، وفارقهم في ذلك الرواة عنهم.

ويكون المد في حروف المد واللين أي الألف، وهي هكذا دائما، والواو والياء قبل كل واحدة منها حركة مِن جنسه، وحرفي اللين وهما الواو والياء الساكنتان قبلهما فتحة.

وعلةُ المدّ إنما هي لملاصقة تلك الحروف الخمسة لهمزة أو ساكن مشدد وغير مشدد نحو: شاء، ماء، شيء، ينوء، صاخّة، الضالّين، لأن هذه الحروف خفيّة والهمزة والساكن بنوعيه أصوات قوية شديدة، فالمدُّ يظهر تلك الحروف أمام هذه ويقويها، ويمنح اللفظ القرآني أبرز خصائصه الموسيقية، ودرجات مِن التنويع والوحدات الزمنية في مسموع صوته.

وأمثلة ذلك في اختيار بعض القراء ولا سيما أوائل السور نحو: الم. **ذلك الكتاب، الم. الله، كهيعص، ذكر،** طسم. تلك آيات..) [2] إذ أجمع القُراء السبعة على إشباع المدّ فيها، ولا سيما إذا جاء بعد مشدد فقد زادوا في مدّه.

بل إن بعض القراء مَدَّ لِغير العلل المعروفة في المد. وهي إتيان الهمزة بعد صوت المد واللين أو الساكن أو المشدد. فقد رُوي عن ورش مده نحو: (آمن، آدم، يستهزؤون، متكئين..) [3] فنحن نلاحظ أن الهمزة قبل صوت المد واللين وليس بعده، لكنه بقي على مَدّهِ طلباً لِبيانه وخشية عليه مِن أن يزداد خفاء وهو بجوار صوت قوي كالهمزة. وترَكَ تمكين هذا المدّ غيره مِن القراء لتقدُّم الهمزة. ورُوي عن ورش مِن وجهٍ آخر تركُ

١ ـ انظر كتاب السبعة ١٣٢

٢ ـ الآيات على ترتيب ذكرها في سورة البقرة ١، ٢ وآل عمران ١ ـ ٢، ومريم ١ ـ ٢، والشعراء ١ ـ ٢

٣ ـ الآيات في سورة البقره ١٣، ٣١، والأنعام ٥، والكهف ٣١.

هذا الإشباع كغيره من القراء، لكنه ظاهرة يَرويها المصريون مِمّن أخذوا عن ورش عنه، وهي مِن مألوف أهل المغرب في دراستهم وقراءتهم وتعليمهم.

والرواية في إشباع مد صوت المد واللين بعدَه همزة في أول كلمة أخرى عن غير ابن كثير وأبي عمرو، وقالون، معروفة. والعلة عندهم ملاصقة صوت الهمزة لصوت المد واللين، فبالرغم من انفصال الصوتين واحتمال الوقف فلم يُلتَفت إلى ذلك ولم يُؤخذ به، ولأن الخبر عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم جاء بصفة قراءته أنها مد كما روي عن أنس[1] و[2]،عموم في كل ممدود، وذكرُ الصوت يدُل على نفس المد، وتأكيدُه بالمصدر يدُل على إشباع المد.

وقد قيل: إن معناه: يصِل قراءته بعضها ببعض، من قولهم: مددت السير في هذه الليلة، وذكره في الحديث لـ «الصوت» يدُل على خلاف هذا التأويل، وقوله تعالى: (ورتِّل القرآن ترتيلا) «سورة المزمل ٤» يدل على التَمهُّل، والتمهُّل يُعطي المد..»

«والقراءة في إشباع المدّ وتطويله على قَدْر قراءتهم وتمهُلهم أو حَذْرهم، فليس مد مَن يَتمهّل ويرتِّل كمدّ مَنْ يحدُر ويُسرِع، ولكن قد ذكر الشيخ أبو الطيب أن مد أبي نَشيط عن قالون والعراقيين عن أبي عمرو أزيد قليلا مِن مدّ ابن كثير ومَنْ ذكرنا معه.. وأن ابن عامر والكسائي أزيد في المدِّ قليلا، وأنّ عاصماً أزيد قليلاً، وأنّ ورشاً وحمزة أزيد قليلا..»

ويدخل في معيار المدّ عدة شروط: منها كون الهمزة في كلمة أو كلمتين والسكون اللازم والعارض، والمشدَّد اللازم والمشدد العارض في كلمة أو كلمتين، وهو شيء جار على طباع القراء ومَذاقهم للفظ والأصوات. بل هو مذهب العرب،.

١ - انظر صحيح البخاري «كتاب فضائل القرآن - باب مد القراءة».
٢ - انظر الكشف عن وجوه القراءات العشر ٥٧/١ والنشر ٣١٣/١.

والمميز من مسموع هذا وغيره مِن المَروي عن القُراء أصناف كثيرة في طول الصوت الممدود، وسبب هذا الاختلاف هو علة مدّ أصوات المد واللين، وأصوات اللين، ولا سيما الهمزة والساكن والمشدّد، فلهذا باختلاف موقعه يؤثر في ماهية الصوت المسموع كما يؤثر فيه مذاق القارىء وطبعه في الاختيار.

ويظهر مثال ذلك في مد وَرْش لنحو [1]: (جاؤوا، باؤوا، سوءاتها، الموؤدة) فقد وازن في مدّهِ بين صِنفين من أصوات المد واللين جاورهما صوت قوي هو الهمزة فقد مد الصوت الذي بعد الهمزة وتركَ مدَّ ما قبلها، وذلك في الحرفين الأولين، لأن قبلهما حركة، ولأن في الحرفين الأخيرين قبل الهمزة حرف لين فاستغنى بَمدِ صوت المد واللين عن مدِّ صوت اللين، لأن هذا ساكن، ولأن أصله الحركة.

ولاختيار ورش ومَنْ وافقه في المدّ وتركه زيادة في تنويع أصوات المد. فقد اختار تركَ المد، مدٌ نحو[2]: (القرآن، مسؤولا)، وعلة ذلك شيئان: أولهما أخذُه بإحدى اللغتين وهي تركُ المد، أي الإشباع، والثاني أنّ قبل الهمزة ساكنا يتيح له نوعاً مِن الصوت، وذلك عندما يُلقي حركة الهمزة عليه، أي على الساكن الذي قبل الهمزة ويطرح هذه مستغنياً بحركتها التي ألقاها عنها. وهو يمد أحيانا، ويلقي حركة الهمزة في الوقت نفسه في نحو [3]: (من آمن، والاخرة).

وإنما هذا وما هو مِثلهُ في تتابع الأصوات وتجاورها أنه [4] ليس في كلام العرب ساكن يُلفَظ به، إلا وقبله حرف متحرك، أو في مدة على حرف مد، تقوم مقامَ الحركة، ألا ترى أن بعض العرب يُحرِك الساكن الذي قبل المُشَدَّد ليصل بالحركة إلى اللفظ بالمشدد، فآثر الحركة على زيادة المد فيقول في: دابّة، دأبة، وقد قرىء: (ولا الضألين) أبدل من الألف

---

١ - الآيات بحسب ترتيبها في سورة آل عمران ١٨٤ والبقره ٦١ والأعراف ٢٠ والتكوير ٨

٢ - الحرفان في سورة البقرة ١٨٥ والاسراء ٣٤

٣ - الحرفان في سورة البقره ٤، ٦٢

٤ - انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ٦١/١

همزة مفتوحة، لِيصل إلى النُطق باللام المشددة..).

وقد تناول الدرس اللغويِ الحديث هذا الجانب اصطلاحاً ومناقشة وبيَّن أن[1] «كون صوت مِن الأصوات في الكلمة أقوى مِن بقيتها يُسمى النَّبْر. فالنبر إذاً موقعية تشكيلية ترتبط بالمَوْقع في الكلمة وفي المجموعة الكلامية، وحَدُّه أنّه وضوح نِسبي لصوت أو مقطع اذا قورن بِبقّية الاصوات والمقاطع فِي الكلام، ويكون نتيجة عامِل أو أكثر مِن عوامل الكمية والضغط والتَنغيم.

غير أن الدرس اللغوي القديم درسَ هذا واستوفاه متصلاً بنصّ القرآن الكريم، وبلغ في ذلك الغاية مناقشة ونتائج. ولّما كان لِكل لغةٍ خصائصها فإن عدة ظواهر من حيث اتصالها بنصوص اللغة ولا سيا النص القرآني اقتضت مناقشة ً ودرساً على أنها تختص باللغة العربية ونصوصها.

أما وقد كان المقام في هذا البحث يقتصر على الجانب الموسيقي ففيا تقدّم من الكلام على ظاهرة المدّ وأثرها الموسيقي مُجزِ بالُمراد.

فماذا بعد من ظواهر لها هذا الشأن في الموضوع؟ إنْ في الهمز، وهو صوت يكاد يَطغى بخصائصه مخرجاً وصفةً على كل أصوَات العربية، فماذا فيه على هدى اختلاف القُراء والقراءات ووجوه العربية، وأي أثر له في القيمة الموسيقية القرآنية؟

فالجواب عن ذلك هو مضمون الصفحات الآتية.

---

١ ـ انظر مناهج البحث في اللغة ١٦٠

الهمز وقيمه الصوتية في نسق الأصوات الأخرى

وصوت الهمزة مِن بين أصوات العربية لِحِقتْه وجوه من التغيير لأنه [1] «حرف بعيد المخرج جَلْد صعب على اللافظ به، بخلاف سائر الحروف، مع ما فيها من الجهر والقوة، ولذلك استعملت العرب في الهمزة المفردة ما لم تستعمله في غيرها من الحروف. فقد استعملوا فيها: التحقيق، والتخفيف، والقاء حركتها على ما قبلها، وإبدالها بغيرها من الحروف، وحذفِها في مواضعها، وذلك كله لاستثقالهم لها، ولم يستعملوا ذلك في شيء مِن الحروف غيرها».

فلهذه الخصائص لصوت الهمزة تعددت وجوه اختيار القراء. فبعضهم يُحقّقها أي يبقي على لفظها سواء كانت مفردة أو مزدوجة. وبعضهم خفّفها مفردة أو إحدى الهمزتين. وبعضهم حذفَها أُولاهما أو ثانيتهما.

فقوله تعالى: (أأنذَرْتَهُم أم لم تُنذِرْهم لا يُؤمنون) «سورة البقرة ٦» وشبهه مّما اجتمع فيه. همزتان حقّقه أهل الكوفة وابن ذكوان أحد رواة قراءة ابن عامر بحجة أن الهمزة الأولى منفصلة من الثانية، كما يُحقق الهمزتين من كلمتين، ولأن ذلك هو الاصل، ولأن تخفيف الثانية يؤدي إلى اجتماع ساكنين، فبعد الثانية ساكن، وتخفيف الثانية يُؤدي إلى أن تكون بزِنة المُحَققة. ولهذا أدخل مَنْ خففها أَلِفاً بين الهمزتين هرباً مِن ذلك.

---

١ ـ انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/٧٢ وكتاب سيبويه ٢/١٩٠، ١٩٤

والعرب في هذا تخفف الثانية، وهو ما اختاره نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام.

وحجتهم أيضاً أن بعض العرب وطائفة مِن القراء تخفف الساكنة. ولمّا كانت المتحركة أثقل كان تخفيفها أولى [1]. ولكنهم وجدوا المخففة بزِنَتها محقّقة، فأدخلوا بينهما ألفاً، لتكون حائلا بين الهمزتين، كل ذلك في الهمزتين متفقتي الحركة.

ومنهم مَنْ حذف الأولى مِن المتفقتي الحركة إذ تقوم الثانية مقام الأولى، ولم يُمدوا لأن علة المدّ ذهبت بحذف الهمزة، وهؤلاء الذين اختاروا هذا هُم أبو عمرو والبَزّي وقالون [2].

ونحو قوله عز وجل: أَئذا، أَؤُلقي، هؤلاء ان كنتم، أَولياء أُولئك، شهداء إذْ حضر، يشاء الى) [3].

فصوت الهمزة المزدوج مختلف، والتخفيف فيه وجهان: أحدهما اختيار ورش، إذ يجعل صوت الهمزة الثانية بين صوتها والألف، ويُشبع المد، والآخر له ولِغيره إذ يجعلون الهمزة المراد تخفيفها بينَ بينَ، فهي في الأمثلة المذكورة، إذا كانت الأولى مفتوحة والثانية مضمومة أو مكسورة جعلت المضمومة بين الهمزة والواو والمكسورة بين الهمزة والياء والمفتوحة بين الهمزة والألف [4].

ولبعض القراء اختيار في الهمزة غير ما تقدَّم وهو في نحو قوله تعالى: [5] (ردءا يصدِّقني، مَن آمن، عاداً الاولى). فقد ذُكر لورش إلقاؤه حركة الهمزة على الساكن قبلها وطرحُ صوت الهمزة، وهو خِلاف أصلِه في صوت الهمزة إذ يَهمِز لامَ الفِعل كما أنّ مِن أصلِه إلقاء حركة الهمزة على الساكن قبلها. وحجته في ذلك شيئان: الجمع بين الهمزة وإلقاء حركة الهمزة بعد

---

١ - انظر التبصرة ٢٢/أ والتيسير ٣٤ والنشر ٣٨٥/١

٢ - انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ٧٥/١

٣ - الحروف على ترتيبها في سورة مريم ٦٦ والقمر ٣٥ والبقره ٣١ والأحقاف ٣٢ والبقرة ١٣٣

٤ - انظر التبصرة ١٩/ب والتيسير ٣١ والنشر ٣٥٨/١

٥ - الاحرف على ترتيبها في سورة القصص ٣٤ والبقرة ٦٢ والنجم ٥٠

طرح صوت الهمزة نفسه. وأشبَهَ لفظه كلمتين مفهومتين.

فهذا في الحرفين الأولين. وأما الحرف الثالث فإن اختيار نافع وأبي عمرو فيه إلقاء حركة الهمزة، وهي الضمة على لام التعريف، وذلك بعد إدغام التنوين مِن «عاداً» فيها وحركة اللام هي حجتها في الإدغام. وكذلك فعل ورش في إلقاء حركة الهمزة في نحو[1]: (الآخر والأرض).

ولِحمزة اختيار في الوقف على صوت الهمزة المتوسطة والمتطرفة، ووافقه هشام على المتطرفة، وهو التخفيف، واختيار سائر القراء غيره هو التحقيق.

وحجة حمزة في ذلك ما تقدم مِن خصائص صوت الهمزة، وشيء آخر هو أن القارىء لا يقِف إلا وقد ضعف صوته، فالوقف على ما فيه هَمز أدَعى الى ضعف صوته. وهذا حِجة هشام في المتطرفة.

وقد فرق بين ما فيه صوتُ الهمزة وجميع حروفه أصلية أو فيه حروف زائدة، لأنه لم يخفف صوت الهمزة المتوسط مع الزوائد، ولا سيما الزوائد التي إذا حُذفت مِن الكلمة لم يتغير معناها [2] ولكن إذا حذفت تلك الزوائد، واختل معنى الكلمة خفّف صوت الهمزة في نحو [3]: (يؤمنون، المؤلفة، هاؤم).

وأما نحو: (تؤمن، تؤتي، رأى، بئر، بئس، قائم، سائل، يؤوده، يؤوس، أولياء، شاء، أنبياء، امرؤ، ذرأ) فهو أصناف للهمزة المتوسطة والمتطرفة بحسب حركتها وحركة ما قبلها، فالساكنة لضَعْفِها تُوافق حركة ما قبلها، والمفتوحة الحركة قبلَها ألف أو فتحة تُجعل بين الهمزة والألف، والمفتوحة قبلها ضمة أو كسرة تُجعل واواً مع الضمة وياء مع الكسرة.

وأما المضمومة والمكسورة قبلها أي حركة أو ألف فتُجعلان بينَ بينَ،

---

١ - الحرفان في سورة البقرة ٤، ٢٢، وانظر التبصرة ٢٣/أ والتيسير ٣٥، ١٧١ وإبراز المعاني ٨٧ والنشر ٤٠٧/١.

٢ - انظر إبراز المعاني ١٢٣ والنشر ٤٢١/١

٣ - الحروف على ترتيبها في سورة البقرة ٣ والتوبة ٦ والحاقة ١٩

المضمومة بين الهمزة والواو، والمكسورة بين الهمزة والياء [1].

وأصنافه صوت الهمزة بحسب تَباين اختيارات القراء تورِث في السَمْع عدة إيقاعات من ذلك الصوت بدءاً مِن أصلها وهو مُحقّق وانتهاءً به، وهو مبدل مِن صوت الحركة التي قبلها واواً كانت أو ياءً.

وهذا كله في نسَق المسموع مِن أصواتِ النص المَتلو، يُمثّل تشكيلاً وتغييراً في لفظ الأصوات ونطقها، ويهبها كثيراً مِن التأثير في نفس المستمع، لا يجلوه حقاً غير الاستماع إلى تلاوة النص القرآني بحسب كل اختيار على حِدة.

فهذه همزة انتهى اليها صوت القارىء بعد صوت مد ولين أو صوت لين كأنما الصوت بها يحاول أن يستغرقها حيث مخرجها متأنياً في إخراجها حريصاً على إظهارها محتملاً صعوبتها، ثم تتبعها الحركة التي عليها فتحة كانت أو ضمة أو كسرة، وكأن هذه أيضا أصوات حركاتها ينطق بها صوت القارىء مستقلة مصفّاة.

وتلك همزة يَجتهد فيها القارىء لِتسمع بين صوتها وصوت حركة ما قبلها، فإن كانت حركة ما قبلها فتحة سمعتها كأنها فتحة تَتعثّر في الحَلْق وتَطول في اللفظ، تَخالها ألفاً مُهمّزة. وإن كانت حركة ما قبلها ضمة سمعتها كأنها واو يقِف الحلق بها وتُمازجها الهمزة، تحسبها واواً مُهمَّزة. وإن كانت حركة ما قبلها كسرة سمعتها كأنها ياء، لا يَسمَح بها الحلقُ لِمُمازجة صوت الهمزة لها.

وتلك همزة لا تَسمع منها غيرَ حركتها التي تصحَب الصوت الذي قبلها، فتَسمعها فتحة أو ضمة، تخيل إليك أصلها، ولكن دون أن تسمع صوتها.

وهذه همزة قد استغرقها صوتُ حركة ما قبلها، فإذا هي في السمع

---

١ ـ انظر الخصائص ١٣٦/٣ والحجة في علل القراءات ٢٧٣/١ وكتاب سيبويه ١٩٨/٢

ألف خالصة أو واو خالصة تستعذبه الأذن.

فهذا التنوع في الصوت الواحد الذي يُمثّله اختيار القراء للهمزة، يورث المسموع تعدداً فيه ودرجات منه، يحكمُه التناسب بين مختلف أصوات الألفاظ في التركيب القرآني.

الإمالة وأثرها في تنوع الإيقاع والتنغيم

إن الإمالة، وان كانت سمة بعض لهجات العرب، إحدى ظواهر القراءة التي تميز قراءة مِن قراءة. وهي في الأصل حكاية للهجة أو أكثر، غير أنها ظاهرة لهجية سجّلها مُدَوّنو أهل نصوص اللغة، فإذا وقف عليها علماء اللغة والنحو بعد ذلك وجدوا فيها: شيئين: أحدهما تناسُب صوتي في سياق التركيب، وثانيهما معيار للكشف عن أصل صوت بعينه، ولاسيما أصوات حروف المدّ واللين [1] فـ «الألف الممالة تكون أصلية بدلاً مِن ياء، فتُميلها لتدُل بالإمالة على أصلها، وتكون ألفا زائدة، تُمال لشبهها بالأصلية، ولأنها لا أصل لها في الواو نحو: مِعزى وقصارى، وقد يكون أصلها الواو، ولكنها أُميلت لرجوعها إلى الياء في نحو: أزكى، ولكسرة مُقدرة نحو: خاف، التي توجب الإمالة».[2]

واختلفت الإمالة باختلاف عللها التي ذكرت في كتب علم القراءات، فكان بعض القراء مِن السبعة لا يُميل إلا النادر، وبعضهم الآخر يميل شيئاً كثيراً مما تضمّن علة الإمالة، وبعض ثالث توسّط، فأمال مِن ذلك شيئاً، لكنه جعل فيما أماله بعض صوت مما كان عليه قبل ذلك ارادة أن يَتبيّن أصلُ اللفظ الذي استعمل فيه الإمالة.

وهذه أمثلة مِن إمالة بعض القراء نحو [3]: (النار، النهار، الجار،

---

١ ـ انظر كتاب سيبويه ٣١٠/٢ وأسرار العربية ٤٠٦ والتعريفات ٢٥

٢ ـ انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ١٦٨/١

٣ ـ الأحرف على ترتيبها في سورة البقرة ١٦٤،٤٩ والنساء ٣٦ وآل عمران ٥٢ والصف ١٤ والمائدة ٢٢ والشعراء ١٣٠.

مَن أنصارى، جبارين) أمال أبو عمرو الأولين، وأماله كله أبو عمر الدُوري: بعضه تفرّد به وبعضه عن الكسائي، وقرأه وَرش بين اللفظين [١].

ومسموع الإمالة فيا أمالَه هؤلاء أنّ الفتحة التي قبل الألف والألف تُلفظان: الأولى نحو الكسرة والثانية نحو الياء. وساعدَ على الإمالة أن حركة الصوت الذي بعدَ الألف الكسرة، فقوي ذلك تقريبُ الألف نحو الياء، وهي لهجة لم تزل مسموعة في بعض بلاد الشام ولا سيا لبنان والساحل السوري.

وبعض القراء تفرّد بإمالة حروف نحو [٢]: (المِحراب) المجرور بالرغم من ضعف الإمالة لفتحة الراء، ولأن كسرة الباء حركة إعراب.

ومثل ذلك قراءة الكسائي وأبي عمرو الحرفين [٣]: (الاشرار، الأبرار) بالإمالة، وأذهبَ ضعف الفتحة على الراء الأولى الكسرة على الراء الأخيرة، وَتكرار الراء [٤].

واختار ورش وحمزة أن يقرأا [٥] ذلك بين اللفظين، وكذلك اختيار ورش حرف [٥] (الكافرين) الذي أماله أبو عمر الدُوري. وأما علة ورش ومَنْ وافقه في القراءة بين اللفظين والتوسّط فيه الأصل [٦].

فالإمالة في الكلام واللهجات قليلة، والأكثر هو الفتح أي تَركُ نُطْق اللفظ على حالة الفتحة قبل الألف والألف دون تَحوير في لفظها أو تقريبها نحو الكسرة والياء.

غير أن اختيار بعض القراء لها في حروف مذكورة إنما كان لما تقدّم

---

١ - انظر التبصرة ٤٠/ب والتيسير ٤٧ والنشر ٣٧/٢
٢ - الحرف موضعان في سورة آل عمران ٣٩ ومريم ١١
٣ - هما في سورة ص ٦٢ وآل عمران ١٩٣
٤ - انظر التبصرة ٤١/أ والتيسير ٥١ والنشر ٥٧/٢
٥ - الحرف في سورة البقرة ١٩
٦ - انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ١٧٣/١

ذِكْره مِن عِلة اختيارهم ولِروايتهم ذلك عَمّن أخذوا عنه القراءة.

ومِن عللها ما هو مُستطرف في المَسموع، وذلك إمالة فواتح السور نحو: (الر، طه، كعيهص، طس، طسم) فإن أغلب القُراء على إمالته وهم غيرُ ابن كثير وقالون وحفص. وأما ورش فبينَ اللفظين، وهو مذهبُ سيبويه، والإمالة فيها إثاراًلـ[1] «الخروج مِن تسفُل إلى تسفّل لخِفة ذلك، كمن فتَحها جميعاً، فآثر الخروج مِن تصعُّد إلى تصعد، ليعتدل اللفظ».

ففي كلِ اختيار مِن الثلاثة سِمة صوتية تظهَر في مسموع تلاوة النص، يُمثلها التناسب في الإمالة إذا كان القارىء يُميل، وفي الفتح إذا كان يؤثر الفتح، وفي التوسط بين اللفظين إذا كان يقرأ بين بين.

ففي نحو: (أتى، تعالى، رمى، سعى، الهدى، الهوى، القرى، فتى، موسى) وهو بعض ما رويت إمالته عن حمزة والكسائي، ينساب الصوت بفتحة سريعا ما تَنتهي إلى كسرة تُعقبها ياء، فيها بعض المَطْل. وبعض هذا رُبَما أتى فاصلة، فتَحسُن القراءة به، وتُحدث في المسموع سهولة في النطق، وتغلب على اللفظ سهولة حقّقتها الإمالة.

وفي نحو (يرى، افترى، تمارى، سكارى، نصارى، أسرى، ذكرى، بشرى) وهو بعض ما رويت قراءته بين اللفظين عن ورش وأبي عمرو، يترك في المسموع صوتاً يؤلفه نغم من صوتي الألف والياء، لا تكاد تغلِب أحدهما على الآخر.

وفي نحو ما تقدَّم الممال وبينَ وبينَ وهو ما قرأه الآخرون بالفتح مختارين الأصل، تناسُب، يظهر في الإبقاء على صوت الألف وأصوات الحركات الأخرى مختلفة ومتقاربة، لتترك في السَمْع نغما آخر، يُحدثُه الاختلاف، ويُميَزه ظهور الألف الذي لا بُدّ أن يغلِب على ما يُقاربه مِن أصوات في اللفظ، فتُخالف أختيها في الاختيارين السابقين.

---

١ - انظر التبصرة ٧٥/أ والتيسير ١٢٠ والنشر ٦٤/٢ وجمال القراء ١٢٣/ وكتاب سيبويه ٣٤/٢

وهكذا، فالإمالة تُؤلف مع غيرها من الظواهر اللغوية في سِياق التلاوة القرآنية مجموعة مِن الإيقاعات في المسموع الصوتي في كل اختيار من اختيارات القراء.

آثار الإدغام في تنويع المسموع

تكاد هذه الظاهرة تكون أقوى مِن سابقتها لاتصالها بأكثر أصوات اللغة، وحاجة المتحدث الى أن يتجنّب التوافق أو التقارب بين الصوتين، فيقوم باجراء الظاهرة.

ويكون الإدغام في المثلين إرادة الخِفة في النُطق وذلك نحو [1]: (قال لهم، وذهب بسمعهم). كان أبو عمرو يُدغِم هذا النوع مِن المثلين، ولا سيما إذا سكن الأول وتحرَّك الثاني نحو [2]: (قل لهم، ارغب بسم).

ويكون في غير المثلين إذا تقاربا في المخرج نحو [3]: (لهُدّمت صوامع، حملت ظُهورهما) ولهذا الإدغام شروط تُرَتّب هذا الإدغام أنواعاً، منها الجَيد ومنها الضعيف.

وهذا الصنف مِن الإدغام عامة يرجع إلى التناسب بين صفات الأصوات. فكلما كان تقوية للصوت الضعيف استجيد وحسُن. وإذا كان إضعافاً لأقوى الصوتين مِن المُدغمين استقبح واطّرح [4].

فأكثرُ أصوات حروف الفم يُدغَم بعضُها في بعض، وهو حسَنٌ قوي لاشتراكهما في إدغام لام التعريف فيها.

---

١ - الحرفان في سورة البقرة ٢٤٧، ٢٠٠

٢ - الحرفان في سورة النساء ٦٣ والانشراح ٨

٣ - الحرفان في سورة الحج ٤٠ والانعام ١٤٦

٤ - انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ١٣٤/١ وابراز المعاني ٦٢ وكتاب سيبويه ١/٢

فقد أدغم نَفَر مِن القراء السبعة الدالَ في الجيم لِما بينهما مِن المُؤاخاة في المَخرج والصفات وهؤلاء غير أهل الحرمين وعاصم وابن ذكوان الذين آثروا الإظهار، لأنه الوجه الآخر في القراءة ولأنه الأصل، وللاختلاف بين الصوتين من حيث إدغام اللام في الدال وعدم إدغامها في الجيم، وللانفصال بينهما في اللفظ.

وكذا أمر إدغام الدال في الذال. وقد اختاره ابن ذكوان. ولعل اشتراك الصوتين في إدغام اللام فيهما هو ما دعا ابن ذكوان إلى اختيار الإدغام.

واختار الحرميان وعاصم إظهار الدال مع الزاي، ودعا الآخرين مِن السبعة إلى اختيار الإدغام اشتراك الصوتين في خصائص كثيرة ولا سيما قوة الدال بالإدغام.

ومثل ذلك أمر إدغام الدال في الصاد والطاء في الضاد. واختار الإظهار مع عاصم الحرميان وابن ذكوان. واختار الإظهار مع الطاء والضاد الحرميان وعاصم غير ورش.

واختار الإظهار للذال من «إذ» مع التاء الحرميان وعاصم وابن ذكوان للانفصال بين الصوتين في صورة اللفظ، ولتباين صفات الذال والتاء. واختار الاخرون الإدغام لاشتراك الصوتين في إدغام اللام فيهما ولتناسب صفاتهما [1].

وكذا أمر اختيار إدغام الذال في الصاد.

واختار غير الحرميين وعاصم ادغام الذال من «إذ» في الدال لتناسب في صفات الصوتين وهو ما احتج به خلَف أيضاً في ادغامه في الدال [2].

---

١ ـ انظر الكشف عن وجوه القراءات ١/١٥١

٢ ـ انظر التبصرة ٣٦/ب والرعاية لتجويد القراءة ٣١/أ والتيسير ٤٣ والنشر ٢/٧ وإبراز المعاني ١٤٣ وكتاب سيبويه ٢/٥٠٣

ولما كان إدغام أحد الصوتين: الذال مِن «إذ» في الجيم أو الزاي أو السين، لِتناسُب في صفات الصوتين المدغمين واشتراكها أو الصوتين لضعفه - فلمّا كان الأمر كذلك اختار الذين آثروا إدغام ذلك.

وتتلاقى صفات الإطباق والاستعلاء بالصَفير والهمس بينَ أصوات التاء التي أدغمَها نفَرٌ مِن القراء في الطاء أو الصاد أو الزاي فتُؤلف صوتاً متشاكلاً، يُوحي بها، تسمعُها الأذُن، ولا تَتنافر فيا بينها في النُطق، ولا سيا إذا كانت القراءة درجاً أو تَدويراً.

ويتبين في تعليل علماء القراءات لِوجه اختيار وضده، فمِن ذلك أن «علة مَنْ أدغم التاء في السين، أن السين فيها صفير يُقَوِّيها، وهي مُؤاخية للتاء في المخرج مِن الفم، ومؤاخْية لها في الهمس، ومُؤاخية لها في إدغام لام التعريف فيها، لكن التاء حرف فيه شدة، تقوم الشدة في القوة مقام الصفير، الذي في السين، فقد تَساويا فحسُن الإدغام، لأنك تنقُل الأول إلى ضعف بل تنقُله إلى مِثْل حاله من القوة والضعف، على أن الصفير أقوى مِن الشدة، فحُسن الإدغام. والإظهار حُسن، لأنها منفصلان ولأنه الأصل. وبالإظهار قرأ الحرميان وعاصم وابن عامر، وذلك حجة».

ولصوت اللام من حرفي «هل وبل» ساكناً مع أصوات التاء والثاء والزاي والطاء والضاد والظاء والسين والنون ما للام التعريف مع هذه الأصوات إذ تُدغم فيها، فلِهذا أدغم هذين اللامين بعض القراء وترك الإدغام بعضهم الآخر، وحجتُهم انفصال الألفاظ، وإمكان الوقف على صوت اللام، لأنه آخر لفظ دون إجحاف كبير في نُطق اللفظ، غير أن الملاحظ في القراءة ما يُشعر بوجوب وصْل الكلام، وبِوصل الكلام يتحقّق اختيار مَنْ أدغم [1].

بيد أنّ هناك حروفاً أُخرى تشتد بينها وجوهُ التنَاسب الصوتي

(١) انظر التبصرة ٣٦/ب والرعاية لتجويد القراءة ٣١/أ والتيسير ٤٣ والنشر ٢/٧ وابراز المعاني ١٤٣ وكتاب سيبويه ٢/٥٠٣

اختارت طائفةمِن القراء السبعة إدغامها بعضَها في بعض أذكر منها الباء والفاء في نحو قوله تعالى: (اذهب فمن تبعك) «الإسراء ٦٣» و (أو يغلب فسوف) «سورة النساء ٧٤» (وإن تعجب فعجب) «سورة الرعد ٥» و(اذهب فان) «سورة طه ٩٧» و (ومَنْ لم يتب فأولئك) «سورة الحجرات ١١» فقد اختار إدغام هذا أبو عمرو وخلاد والكسائي.

وأذكر أيضا أصوات الثاء والذال والراء واللام من نحو قوله عز وجل: (يلهث ذلك) «سورة الأعراف ١٧٦» و (بل ران) «سورة المُطففين ١٤» و (إذ ظلموا) «سورة النساء ٦٤».

وأذكر إدغام بعض هذه الأصوات فيما هو مِن كلمة واحدة نحو قوله عز وجل: (لبثت) «سورة البقرة ٢٥٩» و (لبثتم) «سورة الإسراء ٥٢» و(أُورثتموها) «سورة الأعراف ٤٣» و (فنبذتها) «سورة طه ٩٦» و(عذت بربي) «سورة غافر ٢٧» و (اتّخذتم) «سورة البقرة ٥١» و(أخذت) «سورة فاطر ٢٦».

ونحو هذا يقوي الإدغام فيه، لأنه في كلمة واحدة فضلاً عما بينهما من التناسب الصوتي ولأن بعض الالفاظ طويل بحروفه، والإدغام يخفّف ذلك، وأكثر مَن اختار إدغام هذا غير الحرميين وعاصم [1].

وآخر أصوات الإدغام بل غايتها من حيث المسموع هو النون الساكنة والتنوين والغنة وهذه الأصوات مُظهرة مرة ومُدغمة مرة، فنحو قوله عز وجل: (مِن هاد) «سورة الرعد ٣٣» و (مِن عَلق) «سورة العلق ٢» و (مِن غفور) «سورة فُصّلت ٣٢» و (عفو غفور) «سورة الحج ٦٠» و (أنعمت) «سورة الفاتحة ٧» و (المُنخنقة) «سورة المائدة ٣» فمثل هذه الأصوات عند أصوات الحَلق مُظهرة، وذلك لتباعد المخارج. ولكن إذا لقي صوت النون أو التنوين صوت راء أو لام مشددا حسُن إدغامها، وذلك

١ - انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/١٥٥

لتقارب المخارج، إذ تخرج مِن طرف اللسان.

ويزداد القَوي منها قوة، ولأنها تُدغم في لام التعريف، ومعَ الإدغام يخفى صوتُ الغنة الذي في النون والتنوين، وإن أجاز إظهاره النحويون مع اللام، والقراء على إدغامه مع الراء واللام، وذلك كله في كلمتين. وأما في كلمة فلا، لأن ذلك يُشكِل بالمضاعف [1].

وأما إدغام النون الساكنة والتنوين في الميم نحو قوله عز وجل [2]: (مِن نور) و (مِن ماء) فلا يذهَبُ صوتُ الغُنة. وهي مسموعة أيضاً في الإظهار، والمُشاركة بين هذه الأصوات يحسن الإدغام بعضها في بعض، ولأن كلّ صوت فيه غُنة.

ولما كان بين النون الساكنة والتنوين والواو والياء تشابُه حسُن الإدغام، والتناسُب بين الواو والياء إدغاماً في نحو: طي، لي، حسن الإدغام في الياء والواو، وتَبقى الغُنة مسموعة.

ويُسمع هذا الصوت عند تجاوز النون الساكنة والتنوين صوت الباء في كلمة كان أو كلمتين، فيُبدلان ميماً، والميم صوت فيه غُنة، وهذا الإبدال على المشابهة والمناسبة بين الأصوات [3].

ويَخفى صَوْتا النون الساكنة والتنوين عند بقية الأصوات نحو [4]:

(مَن شاء، مَن كان، مَن جاء، مِن قبل) ولكن تَبقى الغُنة تَخرج مِن الخياشيم. وخفاؤها يُتيح للِسان أن يعمل مرة واحدة، ذلك لأن ترك إخفائها يجعل اللسان يَعمل مِن مخرج صوتها صَوْتِ غُنّتها، ولأن الإدغام لأصوات حروف الفم، وهي تلك الحروف، وأتاح اتساع مخرجها أن تحيط بتلك الحروف، وإخفاؤها عند غير أصوات الأحرف، التي تقدّم ذكرُها مما

---

١ - انظر كتاب سيبويه ٥٠٢/٢

٢ - الحرفان في سورة ابراهيم عليه السلام ٤٠ وسورة البقره ١٦٤

(٣)- انظر كتاب سيبويه ٤٩٧/٢

(٤)- الأحرف على ترتيبها في سورة الكهف وسورة البقرة ٩٧، ٢٥، وسورة الأنعام ١٦٠

تدغم فيه أو تُقلب، يُيسّر استعمالها في النُطق ظاهرة الغنة كما في نحو: عنك، منك، إذ يخرج صوت غنتها مِن الخياشيم. وصوت النون هذا والتنوين يُخفيان عند هذه الأصوات معَ بقاء الغُنة [1].

وهذان الصوتان يَظهران مع أصوات حروف الحَلق كما في نحو: مِنه، عنه، مِن حق.

فكل هذه الأصناف التي تتناولها ظاهرةُ الإدغام واختيار القراء إنما تمثّل تناسقاً إيقاعياً في التلاوة، لا يُؤدّيه إظهار ما يمكن إظهاره مِنها، ولا تؤدّيه ظاهرة أُخرى على هذا النحو مِن التنويع في أصوات الألفاظ في التركيب القرآني.

---

١ ـ انظر التبصرة ٣٧/ب والحجة في علل القراءات السبع ٣٠٢/١ وكتاب سيبويه ٥٠٠/٢

الروم غاية في طلب الإيقاع في سياق التلاوة

وتكون هذه الظاهرة في نحو قوله تعالى [1]: (جزء، دفء، ملء، هؤلاء، حيث، غواش، جوار) إذا وقف القارىء على نحوها جاء بحركة ضعيفة، مما كان على أواخرها من حركات قليلا عليها قبل الوقف، تُسمع وتُرى، وهذا فرق بين الروم وقرينه الإشمام، الذي لا يكون إلا في المرفوع والمضموم، إذ يأتي القارىء بصورة الضمة في استدارة شَفَتيه وهو شيء يراه المستمع الذي يَرى ولا يكون الإشمام إلا في حرف ساكن. والرومُ يكون في حرف متحرك يوقف عليه تدليلا على الحركة بإبقاء شيء منها، فيما لو سَكنت [2] وهذا غاية في تَوضيح المعنى بدلالة الحركة عليه، وفي إسماع أصوات التلاوة،غير أن الوقف على الألفاظ لوجهين: أحدهما الوقف على الحركة، فيتولد منها الصوت الأصلي الذي منه تلك الحركة فيكون مِن الفتحةِ الألف ومِن الضمةِ الواوُ ومِن الكسرة الياء. وثانيهما الوقف بروَم الحركة ويكون كما تقدم بإسماع بعض الحركة التي كانت بآخر اللفظ دون أن يتولّد شيء.

وكل أصوات الحروف في الوقف بالرَوم سواء، إلا أصلين هما الهاءُ المُتحركة بالضَم وقبلَها ضَمة أو واو، والهاءُ المُتحركة بالكسر وقبلَها كسرة أو ياء، وذلك لأن الهاء صوت خفِي، وكأن حركة ما قبلها حركتُها، فالوقفُ بالسكون.

---

١ ـ الحروف على ترتيبها في سورة الحج ٤٤، وسورة النحل ٥ وسورة آل عمران ٩١ وسورة البقرة ٣١،٣٥ وسورة الأعراف ٤١ وسورة الشورى ٣٢.

٢ ـ انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ١٢٢/١ وابراز المعاني ٥٦ وكتاب سيبويه ٣٣٩٧٢ والتعريفات ١٧

والروم في الحركات جميعاً، إذا كانت إعراباً أو بناء لساكن لازم، سواء. ولم يمنع بعض أصوات الحروف كالميم والواو والياء الروم أنها من مخرج الشفتين [1].

وكان للقراء في ذلك اختيارات، فقد روى ابنُ الأنباري أن حمزة بن حبيب [2] كان يُعجبه إشمام الرفع إذا وقف على الحروف التي توصل بالرفع مثلُ قول الله تعالى في فاتحة الكتاب: (اياك نعبدُ) «٥» «يُشِم الدال الرفع. وكذلك (وإياك نستعين) و (الم ذلك الكتاب) و (ختم الله) «سورة البقرة ١، ٢، ٧،» و (يَختَصُ برَحمته مِن يشاء) و (ما محمدُ الا رسول) «آل عمران ٧٤، ١٤٤» «بتَرْكِ التنوين، ويُشِم الدال الرفع، فهذا كثير في القرآن».

وذكر ابن الانباري قوله [3]: وقول حمزة والكسائي أعجب إلينا لأن الذي يقرأ على مَنْ يَتعلّم مِنه إذا قرأ عليه فأشَم الحروف في الوقف علِم معلمُه كيف قراءته لو وَصَل، والُمستمِع أيضاً غير المعلم يعلم كيف كان يصِل الذي يَقرأ».

وكذلك اختيار أبي العباس الورّاق ولا سيما الرفع للفرق بين ما يتحرَّك في الوصل وما هو ساكن في الوصل والوقف لأن مُراده: «أن يجعل على الكلمة المُعربة في الوصل علامة في الوقف ليعرف السامع أنه لم يخطيء إعرابها».

وروى ابن الأنباري هذا الاختيار لأبي عمر عن عاصم حدّثه به أحمدُ ابنُ سهل. وحدثه بهذا الاختيار عن يعقوب الحَضرمي أبو الفتح النَحوي.

غيرَ أن أبا العباس ثعلباً كان يختار الإسكان في كل القرآن للحديث الذي جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من الوقف على كل آية [4].

---

١ ـ انظر التبصرة ٣٤/أ والتيسير ٥٩ والنشر ٢٧/١ ٢٧١/١ وكتاب سيبويه ٣٥٠/٢

٢ ـ انظر ايضاح الوقف والابتداء ٣٨٥ والكوفيون يصطلحون للروم الإشمام

٣ ـ انظر ايضاح الوقف والابتداء ٣٨٦.

٤ ـ انظر سنن الترمذي ١٢٣/٨، ١٢٦.

روى خلف، سماعاً عن الكسائي إعجابه إشمام الحركة الرفع أو الضم في الهاء أي الروم، وكذا حركة الخفض فيها على قِلّته تقوية لها، لأنها صوت خفي، وذلك في نحو قوله تعالى [1] (فلمّا أضاءت ما حولَه) و (فيَعلمون أنّه) و (نجمع عِظامه) و (أن نسوّي بنانه)، و (لِيفجُر أمامه) و (أن ينقَض فأقامه) و (الحمدُ لله).

* ولم يكن اختيار مَن اختار الرَوم مِن القراء بِدعاً . فإن ثِقاتهم يَرونه ويَجعلونه أرفع وجه وأجوده، ذلك أن [2]: الوقف على الأسماء خمسة أوجه: أجودهن أن تقول في الرفع «هذا زيدُ» بالإشارة إلى الضمة، وفي الخفض «مررت بزيدِ» بالإشارة إلى الكسرة و «رأيت زيدا» بإثبات الألف في النصب، ومِنهم مَن يقول في رواية بعض البصريين «رأيت زيد» فيُشير إلى الفتحة، ولا يُثبت الألف. ومِنهم مَن يقول في الرفع «هذا زيدو» وفي النصب «رأيت زيدا» وفي الخفض «مررت بزيدي»... والوجه الأول هو الوجه العالي عند العرب، وهو عند النحويين أثبت في القِياس.

وتجاوز بعض القراء هذا الصنف مِن الأصوات في الوقف إلى ما يُشبهه نحو «ماء» في الاستفهام إذا دخل عليها حرف جر [3]: (عمه، بمه، فيمه) قرأ بذلك البزي عن ابن كثير قصْدَ تقوية الاسم لِكونه على حرف وهي هاء السكت التي في قوله عز وجل [4]: (كتابيه، حسابيه) وذلك مثل الألف في الضمير «أنا» عند أهل البصرة، التي زيدت الألف فيها بياناً لحركة النون في الوقف.

وتفرد البزى في الوقف على قوله تعالى [5]: (هيهات) بالهاء، وروى أنه وقف على الحرفين جميعا بالهاء، بحُجة أنها هاء تأنيث مثل: التوراة

١ - الحروف على ترتيبها في سورة البقرة ٣٦،١٧ والقيامة ٥،٤،٣ والكهف ١،٧٧
٢ - انظر ايضاح الوقف والابتداء ٣٨٩ .
٣ - الأحرف على الترتيب في سورة النبأ ١، والنمل ٣٥ والنازعات ٤٣ .
٤ - الحرفان في سورة القيامة ٢٦،٢٠
٥ - الحرف في سورة المؤمنين ٣٦

ومشكاة، وكذلك قال قُطْرب. وحُجة البزي في الوقف على الثانية أنه جعل الكلمتين ككلمة واحدة نحو: اثنتي عشرة.

وذكر ابن الانباري أن عيسى بن عمر وأبا عمرو بن العلاء كان وقفهُما على «هيهات» بالهاء كما رُويت التاء عن أبي عمرو أيضا [1].

واختيار مَن اختار مِن القراء للروَم يزيد في أصوات التلاوة للنص ألواناً مِن الإيقاع ذات درجات، ليس وراء ذلك مَطلب لِمن حرَص على إيضاح أصوات لغته المنطوقة، وهو أن يبقي شيئاً مِن الحركة قبل الوقف على اللفظ، أو يأتي بصوت يكفل به بيانَ صوت، يُقدِر أنه ضعيف أو خفي كي يبقى مسموعاً.

وشيء آخر لا بُدّ مِن ذكره هو أن إبقاء شيء مِن الحركة دليل على مستوى من الإحساس باللغة والعناية بالأداء بها في أضيق حال للنطق بالصوت اللغوي، وهي حال الوقف.

فذلك كان مطلب القراء في التلاوة لكل صوت وإن قلّ شأنه في الصيغة والتركيب، يحرصون به على إظهار كل ايقاع في النطق.

بيد أنهم يذهبون إلى نقيض ذلك كله حتى يَستغنوا عن الصوت التام إذا كان يَتسبّب في إرباك الصيغة واضطراب التركيب، لا يَعنيهم مِن ذلك إلا طلبَ الانسجام في نسَق اللفظ والنطق.

ومِن ذلك تَصرُّفهم في أصوات العلة جميعاً سواء كانت في حساب اللفظ المستقل كياء الإضافة أو أصلا مِن أصول اللفظ. فما أمثلة ذلك، وما اختيار القراء، وما حُجج مَن تصرف في تلك الأصوات وكيف يتِم التناسب الصوتي، ويتحقق التوقيع في الصيغة والتركيب؟ فذلك مضمون الفصل القادم.

---

١ - انظر إيضاح الوقف والابتداء ٢٩٨ والتيسير ٦٠ والنشر ١٢٧/٢

آثار طريفة لأصوات العلة

والكلام في هذا الفصل معقود على أصوات بعينها ولا سيما أصوات أحرف العلة سواء كانت أصولاً في طائفة مِن الألفاظ أو مضافا إليها في صيغة التركيب.

وميزة هذه الأصوات أنّ مخارجها اتّسَعت لهواء الصوت. فهو لا يقع على مدرج من مدارج الأصوات الأخرى أو غيرها، فكأن ذلك سبباً إلى كثرة استعمالها في تشكيل صيغ الألفاظ، وتنويع التركيب اللغوي[1].

ولا ريب أن مِن هذه الأصوات طائفة نشأت عنها، وهي ما يُسمى بالحركات أو المُصوِّتات أعنى الفتحة والضمة والكسرة.

ولا بد مِن أن تعرض المصوتات الصغرى، أي الحركات، في تأليف صيغة اللفظ والتركيب معاً. ومِن ثَمّ فهي تعرِض لكل صوت، وتعرِض لأصوات العلة التي عنها تولّدت. فتزدوج في التوقيع إذا ائتلفت وتَتباين في مستويات ولا سيما الياء مع الضم والكسر. وهذه الظاهرة بكل جوانبها مَبنية على تناسُب صوتي يحقق توقيعات في المسموع.

وتكاد الياء صوتاً تكون أبرز أصوات العلة في هذه الظاهرة حظاً مِن الإسكان حيناً. والحركة حيناً ثانياً والحذف حينا ثالثاً.

وهي تختلف في الدلالة كما تَختلف موقعاً مِن الصيغة. فهي ياء إضافة مرة، وياء اسم وقع عليه فعل الفاعل. وهي لام مِن صيغة اللفظ اسماً كان أو فعلاً، وهي درج التركيب كما هي رأس آية[2].

---

١ ـ انظر تاريخ آداب العرب ١/١٠٣، ١١٠

٢ ـ انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/٣٣١

وأصَل ابن الأنباري أن كلّ مُنادى أُضيف إلى ياء المتكلم سقطت منه هذه الياء نحو: (يا قوم اعبُدوا الله) «سورة الأعراف ٦٥»، (يا قوم اذكروا) «سورة المائدة ٢٠»، (رَبِّ ارجعون) «سورة المؤمنون ٩٩» (ربِّ اغفِر لي) «سورة الأعراف ١٥١»، (يا عبادي فاتّقون) «سورة الزمر ١٦». وإذا كان لهذا أثر من حيث رسم القرآن الكريم. وهو ما سوف يكون موضوعا بعد هذا الفصل، فلغير الرسم آثار أُخرى، ترجع إلى وجوه مِن العربية تقدَّم مجملُ عنها، لا بُد مِن ذكره ههنا بشيء من التوضيح.

فهذه الياء مثلُ هاء الضمير وكاف الخطاب وتاء الفاعل التي أصلها الحركة. وكذلك الياء أصلها الحركة. فإذا أضيف إليها كانت الحركة فيها ثقيلة، فخفّفوها بالإسكان، وساعدهم على ذلك أن الياء صوت ثقيل في بعض الصيغ، ولثقلها هي والواو إذا تحرّكتا تُقلبان ألفين. ولذا فقد اختاروا لها إذا حَرّكوها، أي الياء، أخفَّ الحركات، وهي الفتحة.

غير أن القراء ونفراً مِن رواتهم اختاروا تحريك الياء في مواضع وإسكانها في مواضع لعلل وحجج ذُكرت في أصول كل منهم.

فمِن ذلك ما رَوى ورشٌ وقالونٌ عن نافع مِما حرّكَ فيه ياء الإضافة ولا سيما الياءات المُختَلف في جميع القرآن الكريم. فمِما روياهُ بالإسكان قوله عز وجل: (وأنّ هذا صِراطي مُستقيماً) «سورة الأنعام ١٥٣» (معي بني إسرائيل) «سورة الأعراف ١٠٥» و (ما كان لي عليكم مِن سلطان) «سورة إبراهيم ٢٢» و (مِن ورائي وكانت) «سورة مريم ٥» و (لي فيها مآرب) سورة طه ١٨» و (سَبيلي أدعو) «سورة يوسف ١٠٨».

واختار مكي بن أبي طالب الفتح في ذلك كله، واختار أستاذه أبو الطيب الوجهين في موضعين رواهما قالون هما: (إلى ربي إن لي عنده) «سورة فُصّلت ٥٠».

واختيار حمزة إسكان كل آية مُختلف فيها إلا (مَحياي) «سورة

الأنعام ١٦٢ » و (بمُصرخِيّ) « سورة إبراهيم » فتح الأُولى وكسرَ الثانية.

وأسكنَ أبو عمرو عشرة مواضع منها: (فإني أُعذبه) « سورة المائدة ١١٥ » و (عذابي أُصيب به) « سورة الأعراف ١٥٦ » و (بيتي للطائفين) « سورة البقرة ١٢٥ » و (وجهي لله) « سورة آل عمران ٢٠ » و (يا عبادي الذين آمنوا) « سورة العنكبوت ٥٦ » و (يا عبادي الذين أسرفوا) « سورة الزمر ٥٣ » لكنه حذف يائي هذين الحرفين.

وكان اختيار ابن كثير إسكان كل ياء اختُلف فيها إلا مواضع حرّكها بالفتح منها قوله عز وجل: (آبائي إبراهيم) « سورة يوسف ٣٨ » و (دعائي إلا) « سورة نوح ٦ » و (مالي لا أعبد) « سورة يس ٢٢ » و (أين شركائي قالوا) « سورة فُصّلت ٤٧ ».

وكذلك كان اختيارُ الكسائي في كل ياء مُختلف فيها إلا مواضع منها قوله عز وجل: (عهدي الظالمين) و (ربي الذي) « سورة البقرة ١٢٤ ، ٢٥٨ » و (حرّم ربي الفواحش)، « سورة الأعراف ٣٣ ، » و (عبادي الصالحون) « سورة الأنبياء ١٠٥ » و (مالي لا أرى) « سورة النمل ٢٠ ».

وكذلك اختيارُ الآخرين من القراء بحسَب الرواة عنهم، وباختلاف عِدة الياءات التي اختار كلٌّ مِنهم أن يسكنها.

والغاية مِن الإسكان والحركة والحذف عِلل واضحة تُحقِّق توقيعاً في نسَق الحَركات. فإسكان أبي عمرو للياءات التي روي عنه إسكانُه لها إذا كان بعدها همزة مضمومة، أو ليس بعدها ألف، غير موضعين، وفتحُه للياء، إنما كان، لما بعدَها ألفُ وَصْل سواء كان معها لامٌ أو غير لام نحو: (إني اصطفيتك) « سورة الأعراف ١٤٤ » ويَفتحها إذا كان بعدَها همزة مفتوحة أو مكسورة. ويسكنها أحياناً لطول الكلمة.

وإسكان ابن كثير الياء إذا كان بعدَها همزة مضمومة أو مكسورة،

أو ليس بعدها همزة، وخالف ذلك في مواضع منها قوله عز وجل: (آبائي إبراهيم) «سورة يوسف ٣٨» و (من ورائي وكانت) «سورة مريم ٥». وخالف أصله في فتح الياء بعدها همزة مفتوحة، أو ألف وصل، وهو ما وافق أبا عمرو فيما بعده ألف وصل، في مواضع منها قوله تعالى: (اجعل لي آية) «سورة آل عمران ٤١» و (ضيفي أليس) «سورة هود ٧٨» و (قال أحدهما إني) و (قال الآخر إني) «سورة يوسف ٣٦» و (يسّر لي أمري) «سورة طه ٢٦» و (إن قومي اتّخذوا) «سورة الفرقان ٣٠». فأسْكَنَها[١].

وهذه العِلل مِن أصول المذكورين، والأمثلة الموضحة إنما تكشف عن غاية اختيارهم. فالإسكان للياء، إذا كان بعدَها همزة مضمومة أو مكسورة أو مفتوحة أو ألف وَصْل أو طول الصيغة، إنما هو اتقاء للتنافر في إيقاع الأصوات بل طلبٌ للتناسب بين الأصوات، وإيضاح لما يمكن أن يخفى بتحريكه أو تسكينه أو تلاقي القوي منها مع القَوي فيحدُث تنافر بينها، أو توالي أصوات أكثر مِن المعروف، أو طول الصيغة في اللفظ والتركيب.

وفي إسكان الياء لمن اختار إسكانها توقيع بصوتها يظهرها، ويترك المسموع درجة من الإيقاع لا يتوافر في غيرها من الأصوات.

وفي تحريكها لمن اختار تحريكها توقيع آخر بصوتها مَتلواً بصُويت الفتحة ولا سيما إذا جاء بعدها ساكن سواء كان ألف وَصْل أو غيره.

وأما حذفُها فلا خِلاف فيه إذا كانت هي والواو لامَ فِعل سبَقه بأداة جَزم، أو كان الفعل أمراً، أو اتصلت الياء بنون في فِعل، أو كانت لاماً في اسم مفرد او اسم جمع نحو: الداعي، القاضي، الوادي، الجواري، الغواشي.

بيد أن ظاهرة الوقف والابتداء في تلاوة نص الكتاب العزيز تؤثر

١ ـ انظر التبصرة ٥٧/ب والكشف عن وجوه القراءات السبع ٣٢٤/١ والتيسير ٦٣ والنشر ١٥٥/٢

بما لدى القراء وأهل الفن مِن علل وحُجج في ثبات الياء والواو وسقوطها. ف «مذهب القراء أجمعين، ومذهب الفرّاء والكسائي ومن قال بقولها» إسقاط الياء الساكنة إذا وقفوا، كذلك قال أبو بكر ابن الأنباري وهو من رؤوس الكوفيين[1]. وذكر أن بعض البصريين. كان يقف على ذلك بإثبات الياء. وحُجتهم في ذلك أن الوَصْل عِلة حذفها لسكونها وسكون التنوين في نحو قوله تعالى: (إنّ ما تُوعدون لآت) «سورة الأنعام ١٣٤» و (ما عندَكم ينفَدُ وما عندَ الله باق) «سورة النحل ٩٦» و (لهم مِن جَهنّم مِهاد ومن فوقهم غواش) «سورة الأعراف ٤١». وحُجة الكوفيين أن الوقف مبني على الوصل فلا ينبغي أن يختلف.

وغلبَ على اختيار غير الكوفيين مِن القراء في وَقْفِهم الحذفُ والإثبات في الوَصْل إلا حروفاً ذُكرت لكل منهم، أثبتوها في الوَصْل والوقف. وبعضُهم يحذِف الياء في الوقف، وإن كانت في الخط برأي العين. ومِن ذلك نافع في قوله عز وجل: (فما آتاني الله) «سورة النمل ٣٦». يقف عليها بغير ياء. ويُثبتها وقفاً ووَصلاً في قوله تعالى: (تسألني) «سورة الكهف ٧٠». ويقف قالون على الأول بياء.

وأثبت قنبل والبَزي وصلاً ووقفاً نيفاً وعشرين موضعا.

وأثبت حمزة والكسائي وابنُ عامر مِن رواية هِشام عنه، وعاصم مِن رواية أبي بكر عنه، كلٌّ مِنهم بضعة مواضع ووقفاً نحو قوله تعالى: (فلا تسألني) «سورة الكهف ٧٠» و (أتُمدونني) «سورة النمل ٣٦» و (يوم يأتِ) «سورة هود ١٠٥» و (ما كُنّا نبغي) «سورة الكهف ٦٤» و (ثُم كِيدوني) «سورة الأعراف ١٩٥» و (يا عبادي لا خوف) «سورة الزخرف ٦٨». وخيَّر أبو عمرو في موضعين هما: (أكرمن، أهانن) «سورة الفجر ١٥، ١٦».

وعلةُ المُثبت منهم وقفاً ووصْلاً إتيانُه بها على الأصل، ولمُشابهة غيرها

---

١ ـ انظر ايضاح الوقف والابتداء ٢٣٤

مِن أصوات المد واللين، لأنها تُحذف مِن الخط كما هو شأن الألف في رسم المصحف.

وحُجة مَن حذف في الحالين اتباعه الخط، وإجراؤه الوقف على الوصل.

وحجة من حذف وقفاً وأثبت وصْلاً أنه جمع بين الوجهين، ولأن أكثر الخط مبني على الوقف[1].

وهذا كله مبني على مذاهب العرب في ائتلاف الصيغة، والاكتفاء بصوت عن آخر، فهم يَكتفون بالكسرة عن صوت الياء وبالضمة عن صوت الواو وبالفتحة عن صوت الألف [2].

وتكون الياء رأس آية، فهي تُحذف أحياناً وتَثبت حيناً. وقد اختار بعض القراء إثباتها وصْلاً، وحذفَها وقفاً، وهو ما رُوي عن عيسى ابن عمر. وروي عن الحسَن جرُ الحروف رؤوس الآيات وإشمامُه إياها الياء[3].

وحُجة مَن حذفها وهي رأس آية أنها بمنزلة رؤوس الأبيات. فرأسُ الآية فصلٌ بينها وبين ما بعدَها كما أنّ آخر البيت كذلك[4].

ويعقوب الحَضرمي كان مِمن يُثبتها وصْلاً ووقفاً بُحجة أن ذلك هو الأصل[5].

وذكرَ الفَرّاء أن الكسائي كان يحذِف الياء، إذا سكتَ عليها بُحجة أن المسكوت عليه مجزوم. وكلُ هذا موافق لما جاء عن العرب. فقد ذكر الفرّاء أنه سمع العرب تقول: لا أدرِ، ولا لعمر، وأنشد قول الشاعر:

ليس يَخفي يَسارتي قدر يوم   ولقد تُخفِ شيمتي إعساري

١ ـ انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/٣٣٣ وإيضاح الوقف والابتداء، ٢٤٦ والنشر ٢/١٧٢
٢ ـ انظر إيضاح الوقف والابتداء ٢٥٠
٣ ـ انظر إيضاح الوقف والابتداء ٢٥٧
٤ ـ انظر إيضاح الوقف والابتداء ٢٥٩
٥ ـ انظر النشر ٢/١٨٢

وقولُ الآخر:

كفّاك كفٌّ ما تُليق دِرهما   جوداً وأخرى تُعطِ بالسَيف الدَّما

وهو يريد: لا أدري، ولا لعمري، وتخفي، وتعطي[١].

وكذلك أمر الواو. فقد حُذفت في عدة مواضع مروية اكتفاء بالضمة عنها نحو قوله تعالى: (ويدعُ الإنسان بالشر) «سورة الإسراء ١١» و (يمحُ الله الباطل) «سورة الشورى ٢٤» و (يدعُ الداع) «سورة القمر ٦» و (سندعُ الزبانية) «سورة العَلق ١٨» ووقف عليها بغير واو. وروى الفراء مثل قوله عزّ مِن قائل: (نس الله فنسيهم) «سورة التوبة ٦٧». وذكر الكسائي عن العرب قولها: أقبل يضربُه لا يَألُ، يريد: لا يألوا[٢]. ومثله ما رواه أبو بكر الأنباري مما أنشده أبو الفتح النحوي:

متى تقولُ خلتْ مِن أهلها الدارُ   كأنّهم بجَناحي طائِرٍ طارُ

أي: طاروا. وأنشد الفَرّاء:

إذا ما شاء ضَروا مَن أرادوا   ولا يألوا لهم أحد ضرارا[٣].

وإثبات الياء وصلاً ووقفاً أو وَصْلاً وحذفها وقفاً، وتسكينها أو تحريكها بحسَب الحُجج المُتقدّمة وكذلك الواو، إنما يعطي هذا كله توقيعاً في سياق التركيب، وفي صيغة اللفظ، لأنه مبني على المُشاكلة والتناسب الصوتي في مجرى التِلاوة والنُطق، وهو ما امتازت به لغةٌ كالعربية تُوورثت منطوقة، وكان سماعها مقياساً لإقامتها وتَهذيبها.

---

١ ـ انظر معاني القرآن ٢٧/٢

٢ ـ انظر معاني القرآن ٨٨/١ والمقنع ٣٥

٣ ـ انظر إيضاح الوقف والابتداء ٢٧٢ ومعاني القرآن ٩١/١

رسم المصاحف صيغ إيقاعية

لا يقتصر التوقيعُ على خصائص الصيغة والتركيب في اللغة العربية من حيث ما تقدّم على أصواتها وألفاظها والعبارة بل ثبت هذا، أو كاد، بما لِرَسم المصاحف مِن صور اللفظ القرآني حتى كان الرسم أحد شروط ثلاثة لاختيار القراءة القرآنية ومخالفته إلغاء للقراءة وإسقاط لها.

وامتاز الرسم القرآني بخصائص يتوافر معها كثرةمِن التوقيعات والتناسب الصوتي. فمِن ذلك مواضع انتهت ألفاظها بصورة الهاء وهي:[1]

(يتسنّه، اقتده، ما أغنى عني ماليَه، هلك عني سُلطانيَه، وما أدراك ما هِيَه). فهذه اختاره حمزة حذف الهاء وَصْلا ووافقه الكسائي وأثبتَها الآخرون. والهاء ثابتة في خطّ المصحف. وحجة مَن حذفَ أنها هاء السكت إنما جيء بها في الوقف لبيان الحركة في صوت الياء، وهي مِثل صوت الألف في الضمير «أنا» عند أهل البصرة. وحُجة مَن أثبتها وصل الكلام ونيتُه الوقف، وذلك نحو وَصْل أبيات الشعر بعضِها ببعض بما في القافية مِن حرف الوَصْل، قال جرير:

أَقلِّي اللومَ عاذِلَ والعِتابا وقولي إن أصبتُ لقد أصابا[2]

ومِنه أيضا قوله عز وجل: (يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة) «سورة العنكبوت ٥٦» وقوله تعالى: (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم) «سورة الزمر ٥٣» فإن ياء الإضافة فيها ثابتة على خلاف غيرها في كل اسم أضيف إلى ياء المتكلم. فالوقف عليها بالياء اتباعاً لرسم المصحف.

١ - الأحرف على ترتيبها في سورة البقرة ٢٥٩، والأنعام ٩٠ والحاقة ٢٨، ٢٩ والقارعة ١٠

٢ - انظر كتاب القوافي ١١٣

وكلُ ياء حُذِفت مِن القرآن الكريم اكتُفيَ منها بصُويت الكسرة، ولم تكنْ تلك الياء على معنى النداء.

وحكى الفراء أن قوله تعالى: (نسوا الله فنسِيهم) «سورة التوبة ٦٧» في المصحف ساقطة الواو من «نسوا» وصورتها هكذا: «نس» والوقف عليها بلا واو. وسقوطها لسكونها وسكون لام التعريف، فبني الخَطّ على اللفظ [1].

ومثله ثلاثة أحرف وهي قوله عز وجل: (وتوبوا إلى الله جميعاً أَيُّهَ المؤمنون) «سورة النور ٣١» و (قالوا يا أَيُّهَ السَّاحر) «سورة الزخرف ٤٩» و (ستفرُغ لكُم أيُّهَ الثقَلان) «سورة الرحمن ٣١». والقراء في الوقف على هذه الأحرف مختلفون، فمِنهم التزمَ الخَط واتبع رسم المصحف. ومِنهم مَن وقف عليها بألف.

وللرسم في القرآن الكريم وجوه كثيرة. مِنها ما يَرجع إلى ما يكتب بالتاء والهاء اسماً كان أو فعلاً نحو قوله تعالى: (أُولئك يَرجون رحمت الله) «سورة البقرة ٢١٨» و (ذكر رحمت ربك عبده) «سورة مريم ٢» و (سُنتَ الله التي قد خَلت في عباده) «سورة غافر ٨٥» و (إن تعدوا نعمت الله لا تحصوها) «سورة إبراهيم ٣٤» و (امرأت فرعون قرة عين) «سورة القصص ٩» و (يا أبتِ) «سورة يوسف ٤» و (هيهات) «سورة المؤمنون٣٦».

ومنها ما يرجع إلى صورة اللفظ في الرسم منفصلا أو متصلا نحو قوله عز من قائل: (قالوا إنما نحنُ مصلحون) «سورة البقرة ١١» و (إنما يُريد اللهُ ليُعذّبهم بها) «سورة التوبة ٨٥» و (فلمّا عَتَوا عن ما نهوا عنه) «سورة الأعراف ١٦٦» و (عمّا قَليل ليُصبِحن نادمين) «سورة المؤمنون ٤٠» و (في ما ههنا آمنين) «سورة الشعراء ١٤٦» و (مِن مّا ملكت

١ ـ انظر إيضاح الوقف والابتداء ٢٧١ والمقنع ٣٥ والنشر ١٤١/٢

أَيمانُكم) «سورة النساء ٢٥» و (مَن ذا الذي يقرِض اللّهَ قَرْضاً حسنا) «سورة الحديد ١١» و (أينما يُوجِّهه لا يأتِ بخَير) «سورة النحل ٧٦» و (بئسما اشتروا بِه أنفسهم) «سورة البقرة ٩٠» و (أم مَن يكون عليهم وكيلا) «سورة النساء ١٠٩».

ومِنها ما يَرجع إلى وجه إعرابي نحو قوله تعالى: (ألا إن ثَمودا كفروا ربَّهم) «سورة هود ٦٨» و (عاداً وثمودَا وأصحابَ الرَّسِّ) «سورة الفرقان ٣٨» و (قواريرا. قواريرا مِن فِضّه) «سورة الإنسان ١٥، ١٦» و (اهبِطوا مِصراً فإن لكم ما سألتم) «سورة البقرة ٦١» و (تَظنُّون بالله الظُّنونا) و (أطعْنا الرسولا) و (فأضلّونا السبيلا) «سورة الأحزاب ١٠، ٦٦، ٦٧».

ومِن وجوه الرسم ما يَرجع إلى الصيغة إفراداً وتَثنية وجمعاً، وهو ما تُفيده خصائصُ الخطِ العربِي الذي كان استوى قبلَ الإسلام بما يُقدّر بأكثر مِن ثلاثة قرون. ومنه ما يَرجع إلى الإعجام والإهمال. وهذا كلُّه استوفته كتُبُ هِجاء المصاحف ونَقْطِها، والقراء فيه مختلفون بين مُوافق لرسم المصحف أو ما يحتمله أو مختار لِما له وجهٌ في العربية أو لِما يُقوِّيه وجه مِن التفسير أو قراءة صحابي أو رواية خبَر أو مَعنى.

والإيقاع الذي يُتيح الرسمُ سماعَه، ويُعطي للقُرّاء فُرصة الاختيار لوَجه أو أكثر لا يَقِلّ وجوها: عمّا تُتيحه العربية وخصائصها، ولا يَقِل عما تُتيحه أخبارُ الأحرف السبعة. فمِن ذلك مثلاً إجراء لفظ «مِصر» وتركُ إجرائه «[1] فمَن أجراها وقفها عليها بالألف. ومَن لم يُجرِها كان له مذهبان أحبُهما إلي أن يقف بالألف اتباعا للكتاب، ويَجتمع له مع موافقة الكتاب مذهبٌ مِن مذاهب العرب، لأن العرب تقِف على ما لا يَجري بالألف فيقولون: رأيت يزيداً وعُمَراً. وإنما فعلوا ذلك لأنهم وجذوا آخر

١ ـ انظر إيضاح الوقف والابتداء ٣٧٢ ومعاني القرآن ٤٢/١ وتفسير الطبري ١٣٢/٢

الاسم مفتوحاً فوَصلوا الفتحة بالألف، ويجوز أن تقف عليه بلا ألف وتَحتج بُصحَف عبدالله وأُبَي. والحُجة لِمَن أجرى «مصرا» أن يقول: هي مصرٌ، مِن الأمصار».

وذكر ابن الأنباري أنّ الفرّاء قال[1] حدّثني قيسُ بنُ الربيع الأسدي عن أبي إسحاق الهمداني عن عبدالرحمن ابن الأسود عن أبيه أنه كان لا يجري «ثمود» في شيء مِن القرآن» وكان يَحيى بن وثاب والأعمش يُجريانها في كلٍّ شيء من القرآن ويُنوّنانه.

واحتمالُ الخط ووجوهِه أتاحَ لأصحاب الاختيار سَعة. وأتاحَت هذه السَعة اختلافاً في الإيقاع في التَرتيل والحَدْر والتَدوير، وفي الوَصْل والوَقْف. والَسموع مِن ذلك حرف مَد يمتَدّ به الصوت أو يقصُر، أو صوت حرف مِن الحروف المذكورة في اختلاف الرسم تاء كانت أو هاءً أو لفظاً مِن مقطعين أو لفظين منفصلين أو مفرداً أو تَثنية أو جمعاً أو غير ذلك.

ولو كان رسم المصحف خُلواً مِن هذه الخصائص التي توافرت له بالأحرُف السَبعة لما كان المسموع من قراءة نص القرآن العظيم غير إيقاع واحد، ليس لِلقراء أن يتجاوزوه أو يأتوا بغيره.

وإذا كان الإمام الشفيق عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه تقيَّد بنُسخة المُصحف التي كانت تُكتب على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يَفُته أن يَنتفِع بقراءة الصَحابة الذين اشتهروا على عهد الرسول الكريم بالحِفظ والإتقان، ووافقت قراءاتُهم لِسان قريش ولهجتَهم، وقد يسّر المولى تعالى لِمَن ندبَهم الصحابي الجليل إلى كتابه المُصحف أن يجعلوا رسمَ المصحف مُستغرِقاً لِوجوه كثيرة. وهو شيء وقف على ميزته العلماء فقال أبو بكر الباقِلاّني: [2] وقد شبّهوا النُطق بالخَطّ، والخطُ يحتاج معَ بيانه إلى رشاقة وصِحة، وملاحة ولطف حتى يجوز الفضيلة ويجمع الكمال.

---

١ ـ انظر إيضاح الوقف والابتداء ٣٦٥ ومعاني القرآن ٢/٢٠

٢ ـ انظر إعجاز القرآن ١١٩

شبَّهوا الخطَّ والنطق بالتصوير، وقد أَجمعوا أن مِن أحذق المُصورين، مَنْ صوَّر لك الباكي المتضاحِكَ، والباكيَ الحزين، والضاحك المُتباكي، والضاحكَ المُستبشر، وكما يَحتاج إلى لُطْف يدٍ في تصوير هذه الأمثلة، فكذلك يحتاج إلى لُطف في اللسان والطبع في تَصوير ما في النَفسُ للغير.

ورسمُ المصحف بعد هذا كلِّه أشبَهُ برُموز التَلحين التي تكون في هذه الألواح بين يدي العازف على الآلة الموسيقية أو المُنشد، يَهْتدي بها في عزفه على الآلة، أو في إنشاده.

فكلُ رَمز مِنها تَغْني صوتاً أو إيقاعاً أو درجة مِن الإيقاع. وائتلاف هذه الرموز بعضها مع بَعض هو اللحن الذي يُمكن سماعُه إذا رَتَّل القارىء هذا النَصَّ أو ذاك مِن نصوص القرآن الكريم.

المصادر والمراجع

(الألف)

إحياء علوم الدين	أبو حامد الغزالي
	دار المعرفة بيروت ـ لبنان
إبراز المعاني من حرز الأماني	عبدالرحمن أبو شامة
	مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر ١٣٤٩
أسرار العربية	أبو البركات الأنباري
	مطبوعات المجمع العلمي بدمشق
الإصابة في أسماء الصحابة	ابن حجر العسقلاني
	مطبعة السعادة مصر ١٣٢٣
إعجاز القرآن	أبو بكر الباقلاني
	الطبعة الثانية دار المعارف مصر
إعجاز القرآن	مصطفى صادق الرافعي
	المكتبة التجارية ١٩٤٥
الإعجاز في دراسات السابقين	عبدالكريم الخطيب
	دار المعرفة بيروت
إيضاح الوقف والابتداء	أبو بكر ابن الأنباري
	مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق

(الباء)

البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن	كمال الدين الزملكاني
	مطبعة العاني ـ بغداد ١٣٩٤

(التاء)

تاريخ آداب العرب	مصطفى صادق الرافعي المكتبة التجارية
التبصرة في القراءات السبع	مكي بن أبي طالب مخطوط (نسخة ألمانيا)
التعريفات	علي محمد الجرجاني مطبعة محمد أسعد قسطنطينية ١٣٠٠
تفسير الطبري	ابن جرير الطبري دار المعارف مصر ١٩٤٦
تفسير القرطبي	القرطبي مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٤٦
تفسير القرآن العظيم	الحافظ ابن كثير دار احياء الكتب العربية القاهرة
تفسير القرآن العظيم	عبدالله بن أحمد النسفي دار احياء الكتب العربية القاهرة
التيسير في القراءات	أبو عمرو الداني المصور عن طبعة استنبول ١٩٣٠

(الثاء)

ثلاث رسائل في إعجاز القرآن	الرماني، الخطابي، الجرجاني دار المعارف مصر ١٩٦٨

(الجيم)

جمال القُراء	أبو الحسن السخاوي مخطوط المدرسة الأحمدية حلب ـ سورية

(الحاء)

الحجة في علل القراءات السبع — أبو علي الفارسي
القاهرة ١٩٦٥

(الخاء)

الخصائص — أبو الفتح ابن جني
المصورة، دار الهدى - بيروت

(الدال)

الدر المنثور في التفسير بالمأثور — جلال الدين السيوطي
مصر

دلائل الإعجاز — عبدالقاهر الجرجاني
مطبعة المنار مصر ١٣٣٠

(الراء)

الرعاية لتجويد القراءة — مكي بن أبي طالب
مخطوط المكتبة الظاهرية دمشق

(الزاي)

زاد المسير في علم التفسير — ابن الجوزي
المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى دمشق

(السين)

سنن أبي داود — أبو داود
دار احياء السنة النبوية

سنن النسائي — النسائي
المطبعة الأزهرية مصر

(الشين)

شذرات الذهب — لابن العماد الأصبهاني
مكتبة القدسي مصر ١٣٥٠

شرح الملوكي — ابن يعيش
مطابع المكتبة العربية حلب

شواذ القراءات — ابن خالويه
المطبعة الرحمانية القاهرة ١٩٣٤

(الصاد)

صحيح البخاري — الطبعة الأوربية

(الطاء)

الطراز المتضمن لأسرار البلاغة — يحيى بن حمزة العلوي
مطبعة المقتطف مصر ١٣٣٢

(العين)

العقد الفريد — ابن عبدربه
مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٤٦

(الفاء)

فضائل القرآن — أبو عبيد القاسم بن سلام
مخطوطة دار الكتب الظاهرية دمشق

(القاف)

القوافي — ابن أبي يعلى التنوخي
دار الإرشاد بيروت ١٩٧٠

(الكاف)

كتاب السبعة في القراءات — أبو بكر بن مجاهد
دار المعارف مصر

كتاب سيبويه — سيبويه
مطبعة بولاق ١٣١٦

الكشف عن وجوه القراءات السبع — مكي بن أبي طالب
مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق

الكشف في نكت المعاني والاعراب — جامع العلوم
نسخة مصورة بجامعة الدول العربية

(الميم)

المجالس — أبو العباس ثعلب
دار المعارف ١٩٥٦

المختار في معاني قراءات أهل الأمصار — أبو بكر أحمد بن عبدالله
نسخة مصورة بجامعة الدول العربية القاهرة

المستدرك على الصحيحين — الحاكم النيسابوري
دائرة المعارف بالهند ١٣٤٠

المسند — الإمام أحمد بن حنبل
المطبعة الميمنية البابي الحلبي القاهرة

المصاحف — ابن أبي داود
المطبعة الرحمانية القاهرة ١٩٣٦

المصنف — عبدالرزاق بن همام
المجلس العلمي الطبعة الأولى ١٣٩٠

معاني القرآن — أبو زكريا الفراء
مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٥

المقنع في معرفة مرسوم مصاحف الأمصار | أبو عمرو الداني
مطبعة الترقي دمشق ١٩٤٠

مناهج البحث في اللغة | د. تمام حسان
دار الثقافة المغرب ١٩٧٤

(النون)

النشر في القراءات العشر | ابن الجزري
مطبعة التوفيق دمشق ١٣٤٥

الفهرس



٩٢١٥٢٦ ☒

٦٦٠٩٢٧ ☎

عمــان ـ الاردن

الرقم المتسلسل ١٨/١٩٨٢ .



مطابع الدستور التجارية
تلفون ٦٦٤١٥٣ - ٦٦١١٥٤
عمان - الاردن

